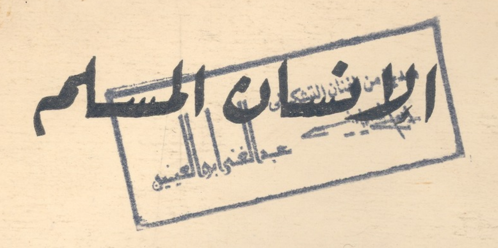


الإنسان المسلم



كتاب الجمهورية الديني

الدكتور عبد الصبور شاهين



الإنسان المسلم

الدكتور عبد الصبور شاهين

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الانسان المسلم يعيش فى هذا العصر باحثا عن موقعه اذ أن هذا العصر يتميز بميزتين لم تتوفرا لأى عصر سبق :

اولاهما : الزحام الشديد فى كل مكان ، والكثافة السكانية التى تفرض قوانينها بمنطق الأعداد الكبيرة . فحيثما وجه المسلم بصره وجد أضعافا من البشر لا يدينون بدينه ، بل وقد يتآمرون عليه ، بحكم الصراع العالمى حول المبادىء والدعوات .

وثانيتهما : التفاوت الهائل بين امكانيات المتقدمين والمتخلفين على سطح الأرض ، ولا ريب أن هذا الانسان المسلم يحتل مقعده فى مجموعة المتخلفين ، الذين يزدادون فى كل يوم تخلفا ، كلما ازداد المتقدمون تقدما ، لأن المسافة بين الفريقين تتباعد بفعل انتصارات العلم التى يحتكرها المتقدمون ، مع افتراض أن المتخلفين لا يبرحون مكانهم ، وأحيانا نجدهم يتقدمون الى الوراء .

ولست أستطيع أن أتخيل صورة للعلاقة المتوقعة بين الانسان المتقدم والمتخلف فى عـالم الغـد الا اذا تخيلت التبعية طابعا ثابتا لهذه العلاقة ، وهى تبعية سوف يزيدها نجاح العلم تعميقا ، حتى لأخشى أن يعـود الى الانسانية عهد الاستعباد الرومانى بأطغى وأفظع ما يكون ، لأن عالم الغد هو عالم القوة المتوحشة أمام الضعف المتهالك ، عالم الفضـاء المحلق أمـام الأرض السفلى التى لم تتخلص من جاذبيتها .

وهكذا يعيش الانسـان المسلم فى هذا العصر حيران تائها ، ويزيد فى تعميق مأسـاته انه فى لحظـات الصحـوة الموقوتة التى تطرأ عليه يجد نفسه أكثر المتخلفين استنارة ، واسلمهم قلبا ، وأرقهـم انسانية . بل انه يتفوق فى هذا الخلق الانسانى على الشعوب المتقدمة نفسها ، فرصيده من الانسانيات الراقية وافر خصيب ، على حين يعذبه انه لم ينجح فى أن يكون استمرارا لأعظم حضارة انسانية شهدها التاريخ ، فكأنما يحمل نفسه وزر هذا القصور ، ثم يرفعه فى لحظات الحساسية المرهفة ، والقلق الشديد الى معنى من الخيانة للتراث وللماضى ، ولأمانة المستقبل .

والانسان المسلم فى هذا العصر يؤلمه أن يجد من حوله جماعات من المتباكين على الماضى ، المتمدحين بما لم يفعلوا يرجون أن يحمدوا به ، ويحسبون أنهم يكونون بذلك بمفازة من عذاب العصر وحيرته وتيهه ، فكأنما هم يتعاطون المخدر

ليذهلوا عن مرارة الواقع ، ثم انهم كذلك يحاولون أن يعطوا منه كميات مسرفة للانسان المسلم ، قائلين له : « لا تأس عـــلى شيء فاتك .. ان لم تدرك الغـــد فان الأمس فى حوزتك » ..

* * *

حضرت ندوة من الندوات الجماهيرية ، تحدث فيها رجال ذوو مكانة علمية ، فكان محور الحديث وفحواه من هذا المشرب الغريب :

نحن الذين طورنا فلسفة اليونان .

نحن الذين اخترعنا الصفر .

نحن الذين اخترعنا الجبر .

نحن الذين وضعنا أسس علم الاجتماع .

نحن الذين قدمنا للانسانية منتجات الزجاج وخلافه .

نحن الذين فعلنا ..

نحن الذين ..

نحن .. نحن .. نحن ..

وماذا بعد « نحن » هذه ؟

ليس فى العالم أحد ينـكر أن الحضارة الاسـلامية أسهمت فى خلق الحضارة الحديثة اسهاما جذريا ، وأنها هى المقدمة الطبيعية لعصر الفضـاء ، وأنه لولاها لما قفز الانسـان هذه القفزة الكبيرة الا بعد عشرة قرون أخرى .

ولا احد ينكر ان المدرسة الاسلامية كانت التربة التى غرست فيها نابتة الحضارة الغربية المعاصرة ... وان منجزات العلماء المسلمين فى قرون الازدهار تضارع - ان لم تفق - أرقى انتصارات العلم الحديث ، لأنها اساسه ومنطلقه .

كل ذلك لا أحد ينكره .. ولا ينكر احد كذلك ان الزمان لو كان مواتيا ، وظلت الريح مع المسلمين لكانوا هم أسبق الأمم الى الفضاء ، لأن هذا المشروع الطائر وضعت نواته بيد مسلم تخيل نفسه طائرا بجناحين ، وحين جرب خر صريعا ، شهيد محاولته العلمية الطموح التى تلقفتها أوربا فحققت الحلم الشهيد .

نعم .. ذلك كله حقائق ثابتة ينسبها الينا علماء الشرق والغرب .. ولكن ماذا بعد (نحن) هذه ؟ ! ..

اين نحن الان ؟..

أيمكن ان نقنع بما حققه الأجداد فى عصور تألقهم ؟..

وهل يغنينا أو يكفينا أن نقتات التراث ، أو نأكله اكلا لما ، دون أن نصنع بأيدينا غذاءنا ؟..

ان أعداء الانسان المسلم من البشر كانوا يعلمون بما تنطوى عليه قدراته من استعداد للتفوق ، فكبلوه بقيود من حديد ، تشده الى التخلف شدا ، ووضعوا فى طريقه

كل المعوقات التى تعطل حـركته ، كان ذلك خـلال فترة الاستعمار .

فلما آذنت شمسه بالأفول فتح الاستعمار فى جنب الانسان المسلم العربى « دمل تصفية » هى اسرائيل ، كيما يستنزف طاقته ، فلا يحاول اللحاق بركب التقدم .

وهكذا يواجه الانسان المسلم مسئوليات مرحلتين ليستطيع تحقيق ذاته ، وصنع مستقبله ، وليعيد التوازن بينه وبين العصر الجديد :

المرحلة الأولى : أن يزيل الوجود الصهيونى من ارضه ، باعتباره قمة المؤامرات الغربية على مصيره ، وليسد (الدمل) النازف ـ على شفاء .

والمرحلة الثانية : ان يطور حياته طبقا للمناهج الحديثة، التى تفرضها تكنولوجيا عصر الفضاء .

وهما مرحلتان متداخلتان بالضرورة ، لأن العدو لن يبيد الا بقوة العلم المسلح .

وليس تغلب الانسان المسلم على العقبة الأولى ، ونجاحه فى المرحلة الثانية بالأمر الهين الذى تبلغه الأمانى ، أو توصل اليه الوسائل السهلة ، فان العدو داخل اسرائيل ، وخارجها يعمل منذ بعيد وله هدف محدد ، هو اقعاد المسلمين عن النهوض ، وتعويقهم عن التقدم ، ليبقى فى مأمن من حركتهم الغالبة .

وقد استخدم بالاضافة الى القوة ــ مناهج التحليل النفسى ، لتغيير النفس المسلمة ، واعدام طاقاتها ، التى هى اعظم خطر يتهدده ، واخصب منبع لامكانات النصر والتقدم .

ولقد أفلح العدو فى جزء كبير من خطته ، حين اغرق اكبر جانب من الشرق العربى فى مشكلة اسرائيل ، على حين عزل بقية هذا الشرق عن الحياة والعالم ، فلم يسمع عنهم احد الا مع تفجر ينابيع الثروة، فاذا بقبائل واقيال من العرب، يعيشون فى تقاليد القرون الوسطى ، فى مناطقهم النائية ، يتوجسون من عدو قريب يتربص بهم اذا ما رحل الاستعمار عنهم ، ليثب عليهم تحت شعارات مختلفة ، فهم يتشبثون بالنار خوفا من هجير الرمضاء ، أو العكس كما يقول المثل .

تلك حال الجنوب العربى الذى تعيش قبائله بين نارين : نار الاستعمار البريطانى المقيم ، ونار الوثوب الايرانى المرتقب .. وهى حالة من التمزق النفسى تبعث على الرثاء ، وتدعو الانسان المسلم الى التأمل والقلق .. الم اقل انه انسان حيران ! ! حيران سواء أكان عربيا ، ام غير عربى فى آسيا أو فى أفريقيا .

والعجيب أن نجد بعض المتبرعين من أصحاب مشاريع الاصلاح يقدمون لهذا الانسان المسلم وصفات من اجل النهضة ، تخيل اليه أنه لن يتقدم الا اذا نسى نصفه ! !..
نعم .. ينسى انه مسلم ، ويذكر أنه انسان فقط ، ومن

هذا المنطلق يندمج فى حـركة التحـرر العالمى تحتشد فى تجمعاتها قوى غريبة ، أكثرها على ولاء مع العدو الاسرائيلى ، يحمى حمى مصالحه فى افريقيا بخاصة ، وكلنا يعرف من هم حماة المصالح الاسرائيلية فى افريقيا ، ممن يتزعمون الدعوة الى التحـرر ، فى عالم اختلط فيه الحابل بالنابل ، عالم هايص مضطرب ، لا يعرف رأسه من رجليه .

المهم ان أصحاب الوصفات يهمهم جداً أن يتوه الانسانَ المسلم فى الزحـام ، ليصبح كالراقص على السلم ، لا هو واقف على أرض صلبة من العقيدة ، ولا هو طائر فى السماء مع المنتصرين .

ومن المؤكد أن النفس المسلمة ذات صبغة متميزة ، وذات عناصر فريدة ، لا يمـكن أن تنهض بدون الاعتماد عليها . انها نفس ذات أخلاقيات الهية نابعة من دينها ، أخلاقيات ذات ترقب للعاقبة ، تحسب حساب الغد دائما ، والاحساس بالغد من طبائع الانسان المتحضر ، الذى يعيش يومه لغده ، الغد القـريب ، والغد البعيـد ، ولم يفقد الانسان المسلم احساسه بالغد كمقوم من مقـومات الحضارة الا مع التيه الذى دخله أو أدخل فيه على مشارف العصر الحديث ..

فاذا تذكـر هذا الانسـان أن مصيره متـوقف على استرداده لهذا الاحساس ، وأن دينه يأمره بذلك أمرا قاطعا فى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد » . كما أنه يجعل منطلق التغيير فى الواقع

ابتداء من تغيير النفس : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ـ اذا تذكر هذا واتخذه منهجا لحياته ، فانه ولا شك يكون قد بدأ الطريق الى عالم المستقبل .

ليس الاصلاح ان تقام مؤسسات ، وترتفع مبان ، ولكن الاصلاح مشروع يبدأ من النفس الفردية ، يصوغ فضائلها ، ويبدل بألوان السلوك المتخلفة خيرا منها ، ويخلق فى أعصاب كل فرد قدرا من القلق والتوتر الخلاق ، الذى يطرد النوم عن الأجفان المسترخية ، والكسل عن الهمم القاعدة ، والجبن عن القلوب الواجفه ، والخيانة عن الضمائر القميئة ، والقناعة عن أحلام الشباب ، الذين هم عدة الغد .. وما أعظم هذا الغد لو سلكنا اليه السبيل : « قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى » .

* * *

وهذه فصول تتحدث عن بعض قضايا العصر الملحة : عن العلم ، وعن الانتاج ، وعن التحرر ، وعن التربية ، ضمنتها جملة تأملات ، ورفدتها بالكثير من أفكار الاصلاح ، لدى كتاب قرأت لهم ، وأخذت عنهم ، وربما نسيت

مصادرهم ، غير انى لم أنس أفكارهم التى حفرت لنفسها مسارب فى عقلى ، واتخذت طريقها الى القارىء ، اسهاما متواضعا فيما نحن مقبلون عليه من معارك ضارية ، ضد العدو الرابض هنالك فى الأرض الطاهرة ، وضد التخلف الذى فرضه علينا الاستعمار ، ومن أجل استنقاذ هذا الانسان المسلم الذى يسعى الى أن يكون له مكان فى عالم الغد ــ من الحيرة والتيه .

عبد الصبور شاهين

اغسطس ١٩٦٩



الانسان المسلم والعلم

عن الاسلام :

للحديث عن موقف الاســـلام من العلم ينبغى اولا أن نحدد معانى الكلمات التى نريد الحديث عن العلاقات فيما بينهما ، ما المراد بالاسلام فى مفهومنا ؟ .. ربما كان المتبادر الى الذهن عند اطلاق هذه الكلمة أنها تعنى العقيدة التى ندين بها ، فى مقابل العقائد التى يؤمن بها غيـرنا من شركائنا فى الوطن والانسـانية .

والواقع أن هذا جزء من مفهوم هذه الكلمة ، لا يحدد الا حيزا محـدودا من التاريخ الذى تتضمنه الـكلمة فى الحقيقة . ذلك أن (الاسلام) ، بمعناه الواسع انما يطلق بمفهوم مقابل للوثنية أو الشرك ، فهو فى الواقع مرادف (الوحدانية) ، واشتقاق الـكلمة ذاته يدلنا على أن المراد بها اسلام القلب لمعبود واحد ، هو المعبود بحق ، دون غيره من الشركاء ، من الانس ، أو الجن ، أو الملائكة ، أو سائر الكائنات .

واذا عاملنا كلمة (الاسلام) بهذا المفهوم استطعنا أن ندرك ما تعنيه الآية الكريمة « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ، ان أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » (١).

فالأديان السابقة من لدن نوح الى محمد صلى الله عليه وسلم هى شريعة لنا ، والايمان بكل ما سبق به الأنبياء جزء أساسى من ايماننا ، والمهم أن نلاحظ قوله تعالى : « شرع لكم من الدين » — الى جانب قوله : « ان الدين عند الله الاسلام » (٢) . وقوله « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها » (٣). وقوله « ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا مسلما ، وما كان من المشركين » (٤) — فكل ما جاء فى هذه الآيات المختلفة هو تفسير لكلمة (الدين) التى تعنى (الاسلام) فى اى مرحلة من مراحل التاريخ الانسانى ، فى علاقته بالنبوة وبالتوحيد .

و (الاسلام) بهذا الاطلاق هو الاسم الذى اختاره الحق سبحانه ليطلقه على حركة الدين منذ تفجرت فى فطرة الانسان ، الى أن ختمت على يد خاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم . وكل نبى قبل محمد هو جزء من حركة

---

(١) سورة ٤٢ ، آية ١٣
(٢) سورة ٣ ، آية ١٩
(٣) سورة ٣٠ ، آية ٣٠
(٤) سورة ٣ ، آية ٦٧

النبوة الداعية الى التوحيد ، وكل رسالة قبل رسالته تحمل فى عنوانها معنى الاسلام ، فاليهودية : من (هاد) ، بمعنى تاب ورجع الى الحق ، ومن ثم أطلق القرآن على اليهود فى بعض مراحل تاريخهم : (والذين هادوا) (١) . والنصرانية : من (نصر) ، التى ينصرف معناها الى نصرة عقيدة الوحدانية كما أرادها الله ، ولعل فى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصارى الى الله ، قال الحواريون نحن أنصار الله » (٢) - اشارة الى هذا المعنى الذى أخذت منه كلمة (النصرانية) . ونصر الله لا يكون الا باسلام القلب له أولا ، ولذلك نرى أن هذه التسمية : (اليهودية والنصرانية) انما تحمل معنى ناتجا عن معنى آخر سابق له . فالتوبة والرجوع الى الله ، ونصر الله لا يكونان الا نتيجة الاسلام لذات الله وحده . وهى اشارة القرآن : « وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا ، قل بل ملة ابراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين » (٣) . فهو لم يقل هنا : (قل بل ملة محمد) ، ولكنه قال : (بل ملة ابراهيم) ، رمزا الى هذه الوحدة النبوية التى تربط الأنبياء جميعا ، ابتداء من أبيهم ابراهيم ، من غير ما تعصب لأحدهم دون الآخرين .

---

(١) سورة ٢٢ ، آية ١٧

(٢) سورة ٦١ ، آية ١٤

(٣) سورة ٢ ، آية ١٣٥

هذا هو الاسلام الذى جـاء به محمد صلى الله عليه وسلم .

ومن الأمور التى تميز بها الاسلام أن تسميته ذات طابع موضوعى ، بعـكس ما حدث من أتبـاع النصرانية حيث نسبوا ديانتهم الى المسيح ، فسموها (المسيحية) ، وهى كذلك فى اللغات الأجنبية (Christianisme) نسبة الى Christ وهو يسوع أو المسيح .

وربما شاعت هذه الطريقة فى تسـمية اليهودية باسم (الموسوية) ، كما يحدث فى الديانات الوثنيـة كالبوذية ، نسـبة الى (بوذا) ، والـكونفوشيوسـية ، نسـبة الى (كونفوشيوس) ، وفى المبادىء كالماركسية .

وقد حاول هذه المحـاولة بعض المستشرقين بالنسبة الى الاسلام ، فأطلقوا عليه لقب (المحمدية) ، وهى محاولة لا تخفى الفرض منها ، واكثر الآخذين بها من الملاحدة الذين يقيسون كل شىء بمعيار أرضى ، ويطلقون اسماء الأشخاص على المبادىء ، كأنما ليسجلوا على انفسهم أنهم لم يتخلصوا ـ كما ادعوا ـ من التبعية للأشخـاص ، وهى الصـورة البشرية لوثنية الأصنام . لـكن الاسلام هو الاسلام ، منذ الأزل ، والى الأبد .

وعن العلم :

ولقد وجدنا مادة حديث حول كلمة (الاسلام) ، تلتقى عندها الآراء المختلفة ، ولـكن ماذا عن كلمة (العلم) ؟ . لقد يبدو هذا السؤال ساذجا ، لأنه يتناول مفهوما يعيش فى مداركنا حتى ان محاولة تعريفه تبدو من باب البديهات ، ولكن أصعب الأشياء فى الواقع هو التصدى لمثل هذه البديهات التى لا نستطيع تعريفها الا بنفسها ، فنقـول : العلم هو العلم ، أو هــو ادراك حقيقــة الأشياء ، أية كانت هــذه الأشياء . وقد عاشت هذه الكلمة : (العلم) قرونا تطلق على مجموعة من المعارف الانســانية المتصــلة بالدين كعلوم النحو والفقه والتفسير والتوحيد والأصــول ، وما اليهــا من فروع البحث النظـرى ، على حين كانت (الفلسفة) تطلق على العــلوم العمليــة كالطــب والـكيمياء والفــلك والرياضيات . ثم تطور مفهوم الكلمة الآن فأصبح (العلم) مرادا به مجموعة المعارف التجريبية التى تقوم عليها الحضارة الحديثة من طبيعة ورياضة وكيمياء وعلوم فضاء ، على حين أصبح المفهوم المقابل للعلم بهذا المعنى هو ما تتضمنه كلمة (أدب) ، ومن هنـــا يقــال عن قسمى الشهادة الثانوية مثلا : (علمى ، وادبى) .

وعن العلاقة بين الاسلام والعلم :

والحق أن كلمة (العلم) لم تأخذ معناها الا مع الاسلام ، فى حركته ، ابتداء من تلك اللحظـة الخالدة التى نزل فيها قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلـم » (١) . فقد تحـدثت هذه الآيات الخمس عن العلم ، فذكرت انه (معرفة المجهول) : (علم الانسان ما لم يعلم) ، وعن مصدره وهو : (الله سبحانه) : (ربك الذى خلق ــ الذى علم بالقلم) ، وعن المتعلم ، وهو الانسان ، الذى ذكر مرتين : مرة فى علاقته بخالقه من العدم ، وأخرى فى تلقيه العلم عن الله . وتحدثت عن وسيلة العام ، وهى : (القراءة والـكتابة) : (اقرأ .. الذى علم بالقلـم ــ علم الانسـان ما لم يعلم) .

فباب العلم وطريقه هو (القراءة) ، التى طلبها الوحى من النبى الأمى صلى الله عليه وسلم من أول لحظة ، ولنا ان نتصور اية بداية رائعـة استهل بها الاسـلام حركته الخالدة ؟ ! آيات خمسة تضم الأسس العلميـة الخمسة

---

(١) سورة ٩٦ ، آية ١ ــ ٥

التى يقوم عليها بناء الحضارة ، الى آخــر الزمن ، المعلم والمتعلم والعلم ووسيلته وأدواته .

ولقد كان من الممكن والمعقول أن تكون بداية الوحى آية مثل : « قل يأيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا » (١) . أو مثــل : « يأيهــــا المدثر ، قم فأنذر » (٢) . وفى هاتين الآيتين اعلام بالمهمــة الملقاة على عاتق المصطفى للرســالة ، وتوجيه الى المسئولية التى تجعله فى مواجهة الناس جميعا ، بروح (النذير) الذى يضــع مصائر الناس بين أيديهم ، ولقد كانت هذه طريقة النبوات السابقة على الاسلام ، جاء الوحى الى موسى فأفاده منذ البداية انه نبى : « يا موسى ، انى أنا ربك فاخلع نعليك انك بالوادى المقــدس طوى ، وأنا اختــرتك فاستمــع لمــا يوحى ، أننى أنا الله لا اله الا أنا فاعبدنى ، وأقم الصلاة لذكــرى » ـ اعلام من أول لحظة بالمهمة التى انتدب اليها ، وهدف يتحــدد بكل وضــوح ، وتعارف كامل بين الله وكليمه عليه السلام .

وهذا هو النهج الذى اتبع مع سائر الأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، فأما هو فقد اختارت السماء نهجا آخر من التربية العالية ، والاعداد الكامل لحمل الرسالة ،

---

(١) سورة ٧ ، آية ١٥٨

(٢) سورة ٧٤ ، آية ١ ـ ٢

والتهيئة للمهمات الثقال التى سوف يأتى بها الوحى ، وهى مهمات تزن مستقبل الانسانية كلها ، وتستودعه فى ضمير هذا الذى تنـزل عليه الآيات الأولى (اقــرأ باســم ربك الذى خلق) .

لقد شاءت ارادة الله جل وعلا أن تكون البداية المحمدية ذات طابع حضارى ، لا اعلامى ، فالدعوة التى سوف يكلف بها النبى صلى الله عليه وسلم ليست مجرد عمل وعظى ، او اخلاقى ، وانما هى بناء حضارى لا يتسنى بغير العلم والمعرفة ، فلتــكن أول اشــارة للوحى من هذا الاتجــاه ، اشارة يتحملها أمى لا يعــرف القــراءة ، ليعلم الناس أن دعوته ليست من ذات نفسه ، وليست انعكاسا لحــاله او قدراته ، بل هى من آثار رحمة الله ، ارادة عليا تنزل خاتمة رســالات السماء على قلب خــاتم الأنبياء ، وكلنا يعلم ان النبى صلى الله عليه وسلم قد خــرج من الغار لا يعــرف حقيقة ما نزل عليه ، ولا يدرى أنه المختار لحمل امــانة السماء ، وانما أخذ يردد النداء (اقــرأ) ، حتى تجلت الحقيقة العظمى .

وتتابع الوحى :

وكان فى كل مرة يحاول أن يعلم المؤمنين شيئا جديدا ، وان يمحو من اذهانهم شيئا باليا خاطئا قديما ، ويمــكننا ان ندرك حديث القــرآن عن العلم ، واهتمامــه به ، اذا ما عــرفنا ان مــادة (ع ل م) ومشتقاتها قد وردت فى

القــرآن (٧٧٦) مــرة ـ منها (٨٠) مرة ذكــر فيها لفظ (العلم) صريحا ، منسوبا الى الله ، أو الى مخلوقاته .
وهذا عن مادة (ع ل م) وحدها ، دون المواد الأخــرى كالنظر ، والتفكير ، والتعقل والتدبر والتذكر .. الخ .

واذا كان لفظ العلم مقابلا للفظ (الأســطورة) فان هذه اللفظة لم ترد فى القرآن الا للتهكم والســخرية ، لأن العقل الذى يسلم بالأسطــورة ويتعلق بها عقل متخلف ، « اذا تتلى عليــه آياتنا قال أســاطير الأولين » ، وآيات الرحمن هى العلم الخالص ، والهداية الكاملة ، فمحال أن تفسر بالأسطورة أو تتصل بها .

العلم والتقليد :

واذا كان القــرآن قد تهــكم بالأسطــورة فقد سخر سخــرية مرة من مســلك التقليــد الأعمى ، الذى التزمه أعداؤه ، حين عز عليهم أن يتعلموا ، وآثروا الجمود على ما ورثوا من جهالة جهلاء ، وضلالة عمياء ، وحاول بشتى المغــريات أن يزحــزهم عن موقفهــم المظلم الذى لا يليق الا بالحيوانات والانعام .

اقرأ هذه الآية : « واذا قيل لهم اتبعــوا ما أنزل الله قالوا بل نتبــع ما ألفينــا عليــه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » (١) .

---

(١) سورة ٢ ، آية ١٧٠

وهذه الآية : « واذا قيل لهم تعالوا الى ما انزل الله والى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون » (١) .

اقرأهما وحاول أن تتبين فيهما ملامح موقف أعداء الاسلام من الذكر المنزل ، والعلم الجديد ، وكيف أن القرآن ينعى عليهم جمودهم عندما ورثوه عن الآباء ، ويسخر منهم حين يتساءل : هل الحق أن تقفوا عندما خلف لكم الأسلاف ، حتى لو كانوا جهالا لا يعلمون ، مجانين لا يعقلون ، ضالين لا يهتدون ؟ ..

وانتقل بعد ذلك الى آيات أخرى تربط العلم الحقيقى بالكتاب ، لأنه وعاؤه لا ريب : « أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون ، بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة ، وانا على آثارهم مهتدون ، وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة ، وانا على آثارهم مقتدون ، قل أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ، قالوا انا بما أرسلتم به كافرون » (٢) .

وهنا يبلغ النقاش مداه ، فهؤلاء الجامدون المتعصبون لا يستندون فى دعواهم الى كتاب مبين ، ولكنهم يتشبثون بمخلفات القرون ، يطلبون عندها الهداية ، وليس هذا

---

(١) سورة ٥ ، آية ١٠٤

(٢) سورة ٤٣ ، آية ٢١ — ٢٤

شأنهم وحدهم ، وانما سبقتهم أمم ضالة من هذا الطراز الذى يجمد عند مأثورات الماضى ، يقلدها ويقتدى بها ، ولا يفارقها الى ما هو أهدى وأنفع .

ولنا فى هذا المقام ملاحظة هى : ان العلم الذى يؤتيه الله للناس على يد أنبيائه انما هو للهداية ، لا للتعالى أو الافساد . وليس المراد بالعلم هنا ما يتصل بالعقيدة أو الآخرة فحسب ، ولكنه شامل لكل ما يعلمه الله للناس من علوم وفنون ومعارف تصلح بها حياتهم عملا ، وتصلح بها نفوسهم هداية ، وتصلح بها مجتمعاتهم تعاونا ، وتصلح بها آخرتهم رضا من الله تبارك وتعالى عنهم .

واستطرادا مع هذا الأسلوب فى محاربة التقليد والجمود اخذ القرآن يهزأ بهؤلاء الجامدين أعداء العلم ، فيشبههم بقطعان الغنم الضالة ، التى لا تسمع من راعيها الا صوته ، دون أن تفهم شيئا من قوله : « ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء ، صم بكم عمى فهم لا يعقلون » (١) . لقد فقدوا أدوات الانسان العاقل ، فقدوا الآذان واللسان والعيون ، ما أتعسهم ! !.

ثم يجعلهم فى آية اخرى اغبى من الغنم ، واضل من الانعام ، لأنهم سدوا منافذ ادراكهم على تلقى العلم ، فهم

---

(١) سورة ٢ ، آية ١٧١

لذلك جديرون بمصير العذاب : « ولقد ذرانا لجهنم كثير من الجن والأنس ، لهم قلوب لا يفقهــون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالانعام بل هم أصل ، أولئك هم الغافلون » (١) .

مفهوم هذه القضية :

والمفهوم من هذه القضية ، على ما ذهب اليه العلماء حرمة التقليد للغير فى الباطل وفى المعصية ، فضــلا عن حرمة المعصية فى ذاتها . أمــا التقليد فى الحق فهو أصل من أصــول الدين يلجــأ اليه الجاهــل العاجز عن النظر والادراك .

وقالوا : ان التقليد ليس طريقا للعلم ، ولا موصلا له ، لا فى الاصــول ولا فى الفــروع والأحــكام الجزئية ، قال القرطبى : « وهو قول جمهــور العقلاء والعلماء » ، وذلك لأن التقليد ليس الا محــاكاة لموقف معين ، دون استقلال لشخصية المقلد ، وهو فى هذا أشبه بالقردة ، والببغاوات ، مع فارق هو أن هذه غير مــكلفة باجتهاد أو تفــكير ، أما الانسان فقد خضع للتكليف منذ كان مسلما .

وانما يصبح التقليد عيبا فى شخصية الانسان المسلم اذا كان يستطيع ان يتعلم ويفهم ثم يقصر ، معطــلا عقله ،

---

(١) سورة ٧ ، آية ١٧٩

اكتفاء بمعارفه التقليدية الحاكية ، أما اذا كان عاميا فان طريقه الى المعرفة أن يسأل العارفين ، ويتعلم منهم ما يشعر أنه بحاجة الى معرفته ، وكذلك الحال فيمن يشتغل بجانب من التخصص فى الفن أو الصناعة أو المعرفة بعيد عن المجال الذى ينشد معرفته ، فان عليهما كليهما – العامى والمتخصص – أن يسألا العلماء بما يريدون معرفته ، تنفيذا لأمر الله : « فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » (1). أى : اقصدوا العلماء بالسؤال حين تجهلون .

وواضح فى هذا الأمر أنه لم يقيد عدم العلم فى قوله : (لا تعلمون)بمجال معين ، كالدين مثلا ، بل اطلق الأمر ، لتكون العلاقة بين العلماء فى كل شأن من شئون الحياة ، وبين المتعلمين أيا كانوا – علاقة حرة ، مباشرة ، يسيرة الحركة .

وانا لنستطيع أن نعد هذه الآية شعارا للمجتمع الاسلامى ، وهى أصدق شعار يمكن أن تحمله حضارة سماوية المصدر ، عالمية المجال ، تقدمية الاتجاه ذاتية الحركة ، انسانية الاهتمام .

---

(1) سورة 21 ، آية 7

مكانة العلم ومجالاته فى القرآن

ولعلنا نلاحظ أننا حتى الآن لم نورد فى حديثنا عن (الاسلام والعلم) ما أثر عن النبى صلى الله عليه وسلم ، بل كان اعتمادنا كله على القرآن الكريم ، باعتباره المصدر الفنى الحافل بكل ما نريد معرفته فى هذا الباب ، وان كنا سوف نحتاج الى أحاديث الرسول فى مجال البيان عن تفسير القرآن .

وبدهى أننا لا نستطيع الحديث عن مكانة العلم فى القرآن ، وكيف حددت مجالاته ، الا اذا تتبعنا القرآن على سبيل الحصر ، بقدر الامكان ، وأرجو أن أكون قد حققت ذلك فيما أقدم من تصنيف لآيات القرآن فى هذا المجال .

ولا بد أولا من التفرقة فى باب المعرفة بين مجالين ، ذكرهما القرآن ، أو بين عالمين ، هما : عالم الغيب ، وعالم الشهادة .

وعالم الغيب هو مجال علم الله وحده ، ويشمل ما يتصل بذات الله الغيبية ، وصفاته الأزلية السرمدية ،

التى لا نعرف حقيقتها وان كنا نعـرف آثارها فيما ترى اعيننا .

ويشمل كذلك عوالم الملائكة ، وأسرار الكون الممتد الى ما لا نهاية لعلمه ، ومسائل الآخرة ، ومتعلقاتها من القيامة ، والحساب ، والجنة ، والنار. وكلها غيوب مطلقة ، لا مجال للعقل فى ادراكها ، وليس له الا أن يسلم بها مادام مؤمنا بالله الخـالق العـليم . وحسبنا اشارة الى هذا الجـانب من أسرار الكون أن نقـرأ ما نشرته الصحف صبيحة يـوم ٢٤ـ٥ـ١٩٦٨ ؛ ونصه : « أعلن اليوم سير برنارد لافيـل مدير مرصد جودريل بانك أن المرصد التقط اشارات من شيء غامض ، عند حافة الكون المعـروف ، وعـرض على مستمعيه ما سجله التلسـكوب اللاسلكى المرصـد ، من طاقة منبعثة من شيئين بعيدين جدا ، وقال : ان احدهما يقدر بعده عن الأرض بخمسة آلاف مليون سنة ضوئية ، بمعنى أن الضـوء المنبعث منـه بدأ رحلته قبـل أن يكون لكوكب الأرض وجود فى هذا الكون . وذكر أن الاشارات الثانية مصدرها جسم آخر ابعد كثيرا » .

وهناك فى عالم الغيب غيوب مؤقتة : يحجبها الله عنا لزمن معلوم ، الى أن يأذن فى حدوثها فنعرفها ، ومن ذلك مسائل الرزق والأجل وما فى الأرحام ، وغير ذلك ، وانظر الى قوله تعالى : « أن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، ان الله عليم خبير » .

لتلاحــظ الفــرق فى التعبير عن الغيب المطلق ، والغيب المؤقت ، فهــو قد عبر عن علم الساعة تعبيرا يشعــر بأن غيبها لن ينجلى ، حتى تقوم القيامة ، وهو نفس التعبير الذى نجده فى قوله : « يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، قل انما علمها عند ربى ، لا يجليها لوقتها الا هو » (١) . كما عبر عن الروح بقوله : « ويســـألونك عن الروح ؛ قل الروح من أمر ربى » (٢) .

بل اننا نستطيع أن نقــول ان التأكيد فى الآية حاسم فيما يتعلق بمســألة قيام الساعة ، أما ســـائر المســـائل الأخرى .. فلم يؤكد الأســـلوب غيبتها المطلقة ، لأنها قد تنكشف فى أوانها كالأجل والرزق ، أو بطريقة أخرى هى البحث العلمى فى علم الأجنة ، وتصاريف الرياح ، والمجال على أية حال متسع لكثير من الاحتمالات ، الا بالنسبة الى قيام الساعة ، وحقيقة الروح ، ومكونات عالم الغيب التى استأثر الله سبحانه بعلمها .

ونود هنا أن نشير الى حقيقة هى أن الايمان بالغيب فى الاسلام ليس قيدا على الفكر وحريته ، فهذا الغيب ــ من ناحية ــ ليس مدار حياتنا ، وانمـــا هو موضـــوع ايماننا ، وليس مما يهم حياتنا على هذا الكوكب أن نلج

---

(١) سورة ٧ ، آية ١٨٧

(٢) سورة ١٧ ، آية ٨٥

عالم الأسرار فيما وراء الكون ، على حين لم ندرك بعد من عالم الشهادة شيئا مذكورا ، حتى النفس الانسانية ، وهى موضوع بين يدى الانسان ، ما زالت عالما من الغموض يستنفد كل طاقاتنا المدركة ولا ينفد .

ولقد يكون ارتباط الانسان بقيمة الايمان بالغيب من اعظم انواع الرقابة على سلوكه مما يوفر ضمانا ضد انحرافات النفس الانسانية ، وهو ما نجح الاسلام فى تحقيقه بالنسبة الى جميع الأفراد المؤمنين به ، فليس فى الاسلام سلطان على ضمير الفرد بجانب سلطان الرقابة الالهية ، واحساس الضمير الفردى بالخوف من العاقبة الأخروية ، ان لم يعجل الله له العقاب فى الدنيا . ولعل ذلك متمثل تماما فى بعض الأمثال الشعبية عن « مال الوقف الذى يكنس البيوت » ، فمال الوقف هنا هو القطاع العام بأجلى معانيه ، ومحافظة الفرد على كل قرش منه نابعة من ايمانه بقوة غيبية عالمة بكل شىء ، مجازية بالاحسان احسانا ، وبالسوء سوءا ، وهو موقف لا يتمثل فيه خوف من سلطة أو قانون ، بل هو الخوف من الله وعقابه ، ولو كان الأمر امر سلطة أو قانون لما كان الخوف منهما شاملا بالصورة التى شهدها المجتمع الاسلامى ، بتأثير عقيدة الايمان بالغيب .

وربما لا يكون استطرادا اذا ركزنا الحديث فى هذه النقطة عن دور الضمير فى ضبط تصرفات الفرد ، ومن ثم فى اصلاح حال المجتمع .

كثيرا ما يسألنى بعض الغيورين المتحمسين : لماذا لا تصدر الحكومة قانونا يحرم لبس المينى جيب ، ويمنع هذا التهتك فى الشوارع ؟

وهذا السؤال يتردد كثيرا فى الأوساط الشعبية التى ما زالت بخيرها ، لم تفسدها انحرافات المدنية الزائفة .

وكثيرا ما كنت أرد عليهم بأن القانون ليس كل شيء ، وهو أعجز من أن يمنع الفتيات السائبات من لبس المينى جيب ، بل ان اجراءات تطبيق قانون كهذا – لو صدر – قد تكون فرصة لذوى الرغبات المختلة أن يؤذوا عباد الله بحجة القيام على تنفيذ القانون .

ومن ناحية أخرى : اليس لدينا قانون يعاقب على السرقة ؟ فهل منع السرقة ؟ولدينا قانون يمنع المخدرات تعاطيا ومتاجرة ! فهل اختفت المخدرات من البلاد ؟.

ان القانون الوحيد الذى ينجح هو قانون الضمير المؤمن بالغيب ، المراقب لله ، المرتقب للجزاء العاجل والآجل وهو الذى نجح فى المجتمع الاسلامى الأول فنفى عنه هذه الخبائث ، وازال منه شبح الجريمة الأخلاقية ، وهو الضمير الذى ايقظ الزانية من سكرتها لتعترف فى اصرار على نفسها ، وتطالب باقامة الحد عليها تطهيرا وتزكية لنفسها ، وليت لدى الكثيرين منا ضميرا كضمير هذه الزانية !..

ذلكم هو الشعور الذى عجزت مبادىء كثيرة عن خلقه فى وجدان أتباعها ، فأخذتهم بسلطان القانون حينا ، وبرقابة

الجـواسيس حينـا آخر ، حتى تقلل بقـدر الامكان من انحرافات الأفراد .

ولربما أدركنا من ناحية أخرى أن تغييب بعض العوالم والأسرار عنا ، مطلقا ، أو مؤقتا ، أدعى الى شحذ خيالنا العلمى ، وجذب محاولاتنا لاستكناه هذه الأسرار . بعكس ما لو كان الكون قد بسط امام أنظارنا كتابا واضحامكشوفا، تكسل العقول عن مطالعته .

ان دلالة الخبر الذى أوردناه آنفا تفحم الفكر المادى : الذى لا يؤمن بوجود الله الخالق القدير ، ذلك أنه لايستطيع أن يقول شيئا فى تفسير ما غيب عنه خلف حدود الكون أو حافته ـ كما يقولون . أما العلم الحقيقى فانه يعرف بذلك نطاقه المحدود المنتهى ، فان وراء هذه الكواكب السحيقـة البعد ، وراءها بملايين ، وربما بمليارات السنين الضوئية ، تمتد الهاوية التى لا قـرار لها ، للانهـائية التى يستحيل الوصول اليها ، أو حتى تخيلها بالنسبة الى الفكر العلمى . حيث لا يجد هذا الفكر موضوعه الذى يدور دائمـا فى فلكه : الكم ، العلاقة ، الحالة .. اى كم ، اية علاقة ، أية حالة ؟.. كل هذه الأسئلة لا معنى لها خارج حدود المادة حيث تكمـن اللانهـائية اللامادية .. وراء هذه الحـدود يستطيع الفكر الدينى وحده أن يقول شيئا واضحا : « الله اعلم » (١) ، وهو يقولها بكل تواضع ، وبكل ايمان ، وبكل علم .

(١) انظر الظاهرة القرآنية للاستاذ مالك بن نبى ـ ترجمة المؤلف.

وهذا الفكر المؤمن بعالم الغيب هو الذى أقبل على عالم الشهادة ينظر فى أسراره ويكشف عن ظواهره وقوانينه فى كل مجال مدفوعا بدعوة القرآن الى النظر ، والفكر ، والعلم . وقد آن أن ننظر الى موقف القرآن من العلم ، كما سبق أن أشرنا .

التصور القرآنى :

يقوم التصور القرآنى للعلم على أساس واضح يفرق بين مستويين من المعرفة ، المعرفة المطلقة ، والمعرفة النسبية .

والمستوى الأول لا يتوفر الا لله سبحانه ، لأنه هو الخالق ، ومن شأن الخالق أن يدرك أسرار مخلوقاته : « الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » (١) .

وحسبنا أن نقرأ بضع آيات من القرآن تصور هذا المستوى من العلم المطلق ، قال تعالى : « وعنده مفاتح الغيب لايعلمها الا هو ، ويعلم مافى البر والبحر ، وماتسقط من ورقة الا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين » (٢) .

ففى هذه الآية معرفة مستفيضة شاملة لكل حركة تصدر من أى مخلوق ، حتى الحبة فى بطن الليل المظلم ،

---

(١) سورة ٦٧ ، آية ١٤

(٢) سورة ٦ ، آية ٥٩

حتى الورقة الضئيلة تطير أو تسقط ، كل ذلك مقيد مسجل فى سجل لا يغفل أدنى موجود .

وهذه آيات أخرى :

- « الله يعلم ما تحمل كل أنثى ، وما تغيض الأرحام وما تزداد ، وكل شيء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال . سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار » (١) .
- « وان تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى » (٢) .
- « قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب الا الله » (٣) .
- « قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض » (٤) .
- « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » (٥) .
- « والله يعلم إسرارهم » (٦) .

---

(١) سورة ١٣ ، آية ٨ — ١٠

(٢) سورة ٢٠ ، آية ٧

(٣) سورة ٢٧ ، آية ٦٥

(٤) سورة ٢٥ ، آية ٦

(٥) سورة ٤٠ ، آية ١٩

(٦) سورة ٤٧ ، آية ٢٦

- « ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب اليه من حبل الوريد » (١) .
- « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ، وأنه اليه تحشرون » (٢) .

وأمام هذا العلم المطلق ، الذى لا يغادر صغيرة ولاكبيرة الا احصاها يمكن أن نتصور مدى علم الانسان . وعلاقة هذا العلم النسبى بعلم الله المطلق .

لقد تحدث القرآن عن علم البشر على أنه نفحة من الله وحده ، وليس من متعلم الا وقد آتاه الله ما تعلم ، مهما غفل عن مصدر علمه . واسمع قوله تعالى :

« والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » (٣) .

وبعدها مباشرة يقول : « ألم يروا الى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن الا الله أن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون » (٤) .

فالانسان فى اول أمره جاهل لا يعلم شيئا ، ولكنه منح عدة نوافذ للمعرفة هى الحواس ، والعقل الذى يتلقى

---

(١) سورة ٥٠ ، آية ١٦
(٢) سورة ٨ ، آية ٢٤
(٣) سورة ١٦ ، آية ٧٨
(٤) سورة ١٦ ، آية ٧٩

أشاراتها ومعلوماتها ليفسرها ، ويفيد منها ، وهذه أولى خطوات التربية الالهية لهذا الانسان . ثم هو حين يستوى على سوقه يستطيع أن ينظر الى الطير مسخرات فى جو السماء ، كيف تحلق ؟ .. وما القوانين التى تتحكم فى طيرانها ؟ وعلى هذا الأساس استطاع الانسان أن يستغل الجو فى الطيران ، ليصبح التحكم فى الفضاء طابع هذه الحضارة ، الذى بدأت محاولته منذ تخيل العباس بن فرناس أن يطير بجناحين ، فخر صريعا ، شهيد محاولته ، الى أن بدأ الانسان يغزو كواكب الفضاء ، لا يحجزه عن اقتحامها الا المسافة الزمنية ، وما هبوط أول انسان على سطح القمر الا باكورة مستقبل ملىء بالاحتمالات .

ان القرآن يؤكد دائما أن الله هو واهب العلم . وأن العلماء هم الذين (اوتوا) العلم ، وانظر الى هذه الآيات الكريمة :

- « وانه لذو علم لما علمناه » (١) .
- « وليعلم الذين أوتوا العلم انه الحق من ربك » (٢).
- « وعلمناه من لدنا علما » .
- « الرحمن . علم القرآن . خلق الانسان . علمه البيان » (٣).

---

(١) سورة ١٢ ، آية ٦٨
(٢) سورة ٢٢ ، آية ٥٤
(٣) سورة ٥٥ ، آية ١ — ٤

- « وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم »(١) .
- « ان الله اصطفاه عليكم ، وزاده بسطة في العلم والجسم » (٢) .
- « واتقوا الله ويعلمكم الله ، والله بكل شيء عليم » (٣) .
- « أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به في الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها » (٤) .

وهنا نجد أن تعليم الله للانسان قد بدأ منذ حبا ودرج على ظهر الأرض فعلمه البيان ، وهو أول خطوات الحضارة الانسانية ، بل لا يمكن أن نتصور انتصارا علميا أية كانت درجته وخطورته دون أن يعتمد على اللغة والبيان. وليست الحضارة صناعة البكم ، وانما هى صناعة أهل البيان .

وتتحدث بعض الآيات عن تعليم الله للانسان بعض الصناعات ، كصناعة الحدادة ، التى ينتج بها السيوف ، وأسلحة الحرب ، ليدافع بها عن نفسه ، ويحصن بها وجوده .

---

(١) سورة ٢١ ، آية ٨٠.
(٢) سورة ٢ ، آية ٢٤٧
(٣) سورة ٢ ، آية ٢٨٢
(٤) سورة ٦ ، آية ١٢٢

واذن ، فليس تعليم الله للانسان مقتصراً على البيان او هداية الوحيد . بل الأمر اجل واخطر من ذلك ، علمه كيف يصنع أدوات الحضارة من الحديد الذى اشارت اليه الآية : « وانزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس (١) » .

واستطرادا مع هذا الحديث نستطيع ان نتتبع فى القرآن مجالات المعرفة التى ندب الله عز وجل الانسان الى خوضها والبحث عن اسرارها وآتاه القدرة على ادراك قوانينها ؛ فهو قد أمره أن ينظر فى قوانين الفلك ؛ ويراقب حركة النجوم فى الفضاء . فقال سبحانه : « او لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء » (٢) . وقال : « افلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج (٣) » .

ولا بد لنا ان نقف هنا وقفة يسيرة ؛ امام الأمر بالنظر والحث عليه ، سواء أكان المنظور سماء ام أرضا . فكل ذلك مجال للمعرفة المتاحة ، التى يسرها الله لعباده .

لكن ما المراد بالنظر ؟ .. أيكون مجرد التأمل بتحريك الأعين تحريكا يدعو الى التعجب من قدرة الله وشكره !؟ ذلكم هو النظر الساذج الذى يليق بالمقعدين والكسالى .

---

(١) سورة ٥٧ ، آية ٢٥
(٢) سورة ٧ ، آية ١٨٥
(٣) سورة ٥٠ ، آية ٦

اما أولو العلم فان النظر يعنى لديهم المعرفة التجريبية ، بقدر ما تبلغ وسائل الانسان ؛ فالسير فى الأرض للنظر معناه تقليبها وتأمل عيناتها ، وفحص هذه العينات ، واستخراج الطاقة من ذراتها ، وكل ذلك نتيجة النظر ومحصلته .

والنظر فى ملكوت السموات يعنى استخدام كافة الوسائل التى يبلغها جهد الانسان لدرس هذا الملكوت ومعرفة أبعاده ، ودرك اسراره ، ولا حرج . وليس طيران الانسان فى أجواء الفضاء تحديا لقدرة الله فى ملكوت السموات ، بل هو من اقدار الله لهذا المخلوق ، الذى لا تعرف مطامحه العلمية الحدود (وعلمناه من لدنا علما)

فالدعوة الى النظر فى ملكوت السموات دعوة الى المعرفة التجريبية لو استطعنا اليها سبيلا . وهنا يأتى دورنا لمناقشة قوله تعالى فى سورة الرحمن : (يا معشر الجن والانس ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا ، لا تنفذون الا بسلطان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران) .

والعجيب فى هاتين الآيتين ، أو قل : العجيب فيمن يحاولون فهمهما أن فريقا منهم يأخذ منهما نقيض ما يأخذ الآخر .

فقد ذكر بعض المجتهدين أن الآية الأولى دعوة للانسان الى غزو الفضاء ، فبرز له بعض المجتهدين أيضا ليقول له : كلا ، ليس فى الأمر دعوة الى شيء ، وانما هو أمر مقصود به

التعجيز ، اى : لن تنفذوا . ونسى ان يقول تكملة لهذه التحفة : كما قال الجرجانى والسكاكى وبقية اتباع المدرسة الشكلية فى تحليل النصوص القرآنية !!

ولعل هذا هو ما دعا بعض مروجى الدعاية ضد الاسلام الى ان يقولوا : ان فى القرآن نصا يدل على ان الانسان لن يستطيع الذهاب الى القمر ، ثم يخرجون السنتهم ويقولون : وقد ذهب الانسان .. وانتهى الأمر !!

ولست واجدا فى القرآن مطلقا ما يمنع من غزو الفضاء ، حتى ولا هذه الآية ، لأنها ببساطة تربط النفاذ فى اقطار السموات والأرض بوجود (السلطان) ، و (السلطان) فى استعمال القرآن يعنى العلم ، وهو كذلك فى قوله تعالى : (ان هى الا أسماء سميتموها انتم وآباؤكم ما انزل الله بها من سلطان) .

وقد مرت البشرية بدور كانت فيه تطمح الى الصعود فى الفضاء ، ولكن لم يكن بيدها السلطان الذى يعينها على بلوغ هدفها ، فهى عاجزة لقصور معرفتها ، وهى ايضا عاجزة عن اتقاء حمم الفضاء من النيازك الطائرة الطائشة .

فلما بلغت البشرية سلطانا يمكنها من الصعود من ناحية ، واستخدمت من المعقول الالكترونية ما يقى رادة الفضاء شر النيازك النارية ، اذن الله لها أن تنفذ الى القمر ، كخطوة أولى تليها خطوات .

وليس فى وسع احد أن يتنبأ بما سيتلو ذلك من محاولات ، ولكن طموح الانسان لا يعرف حدا ، وكفاحه

ضـــد العوائق الطبيعيـــة متسم بالاصرار ، فاذا افلح فى اقتحام كواكب اخرى كان ذلك قطرة من علم الله ، من عليه بها ، فى انتظار أن يحاول الحصول على قطرات اخرى : (وما أوتيتم من العلم الا قليلا) .

ان الذين يحاولون غزو الفضاء هم أعرف الناس بما ينتظرهم من عقبات ومصاعب واخطار ، وهم كذلك أعلم الناس بأبعاد الكون المعلومة . وبحدوده التى تمتد وراءها اللانهائية الأبدية ، فاذا ما ساروا خطـوات فى الفضـاء ، دقيقة أو دقيقتين بقياس سرعة الضوء ، فانهم لا يحلمون ان يقطعوا ما يساوى ساعة ضوئية أو ساعتين ، فضلا عن سنة أو ســنتين ، فضــلا عن ألف او الفين من السنين الضوئية ، فضلا عن آلاف السنين وملايينها وملياراتها .. اى قدرة تطيق ذلك ؟؟ وأى صاروخ أو طاقة تحمل اليه ؟

طاقة الانسان الذى ارتبطت حياته بالأرض وظروفها والليل والنهار من شروطها ؟ ذلك أمر بعيــد هيهــات أن يتحقق ، الا اذا ســار الانســان بسرعة الضــوء مــلايين السنين .. ولن يبلغ مع ذلك من ملك الله شيئا .. مع افتراض المستحيل .. لأن الكون يتسع ويمتد بأسرع من سرعة الضوء ــ هكذا قال العلماء ..

وبرغم كل شيء فاننا نقــول : ان غزو الفضاء خطوة نحو المعرفة ، ونرجو أن تكون معرفة تقود الى الايمان بالله ، الخالق العظيم .

وحسب الذين يجتهدون لتفسير نصوص القرآن أنهم يحملون هم عصرهم على رءوسهم ، ويحاولون أن يجيبوا على اسئلة جيـل تبدلت مقاييســة المعرفية ، وتحيرت نظرته الى القديم ، وداهمته تيارات الحاد تكاد تحطم قلبه وأمله وحياته ، وتشده شدا الى الكفر بالله ، ومن واجب المجتهدين أن يلاحقوا هذه التيارات بالفهم ، ويقاوموهـا بالفكر وبالثقافة . وفى الوقت نفســه يتنازلون قليلا عن بعض الأحكام البلاغية التى لم تكن يوما ـ تنزيلا من حكيم حميد ، ولكنها كذلك اجتهادات يمكن أن تنسخها اجتهادات تفرضها ظروف العصر .

صحيح ان القرآن كتاب هدى ودين ، وليس كتاب طبيعية أو كيمياء .. هذا صحيح ، ولـكن القرآن أسس منهجه للهداية على امرين ظاهرين :

اولهما : التحـدث عن الماضى ، وصرف القلوب الى تدبره .

وثانيهما : الحديث عن سنن الله الكونية ، والاشارة الى آثارها المحكمة التى لا تتبدل او تتخلف .

والحديث عن هذه السنن أو الظـاهرات الكونية له حقيقة ، وله مـدلول ضـمنى . فأما الحقيقـة فهى ما استودعته الآية من التفاصيل الصريحة ، أو الاشـارات اللمحية المتصلة بأوضاع الكون والحياة . وأما المدلـول

الضمنى فهو حث المؤمنين على تأمل قدرة الخالق ، ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم .

وهذا القدر من الهدى يستفاد من الآية الدالة على السنة الكونية ، كما يستفاد من الآية المعبرة عن حقوق الوالدين في البر ، أو الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر ، اذ أن المحصلة النهائية لتدبر الانسان فى هذه الآيات هى الهداية الى الحق ، والايمان بالله ورسله .

بيد ان هذا الجانب من الحديث عن السنن الكونية من اهم ما يميز القرآن عن سائر الكتب المنزلة ، لأن القرآن لم يقدر له أن يكون كتابا مرحليا ، ينتهى بمجىء رسالة اخرى تعقب عليه بكتاب آخر ، وانما جاء ختاما للرسالات وللكتب المنزلة ، فكانت ميزته انه يستطيع أن يواكب ركب الانسانية المتطور ، على مر الزمن ، مهما تقلبت بها الأحوال ، وأية كانت منجزاتها العلمية . ونحن لا نستطيع أن نقرأ قوله تعالى :

« فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء » ـ دون أن نفهم من هذا ـ الى جانب قدرة الله على الهداية والاضلال ـ اشارة الى صعود الانسان فى السماء ، وما يعرض له من ضغوط بسبب اختلاف درجات الضغط ، حتى يصل الى حالة انعدام الوزن .

ولم تكن البشرية قد قفزت بعد ــ حين نزلت هذه الآية ــ الى علو امتار فى الجو ، فضلا عن ان تصعد فى السماء ، فالتشبيه له ــ دون شك ــ جانب تصويرى بلاغى ، وجانب كونى ، لا يعتمد على المبالغة ، بقدر ما يدل على الحقيقة التى كشف العلم الحديث قوانينها التابتة . وصورتها صيغة الفعل (يصعد) تصويرا دقيقا ، يدل على المعاناة والمغالبة .

فاذا وضعنا قوله تعالى (ان استطعتم ان تنفذوا من اقطار السموات والأرض فانفذوا ، لا تنفذون الا بسلطان) الى جانب هذا التشبيه أو التصوير لحالة الصعود فى السماء ــ ادركنا اى تنبؤ المحت اليه الآيتان ، واى مستوى من التعبير العلمى بلغتاه ، من اجل هداية الانسان .

* * *

وامر الله عباده ان ينظروا فى احوال الأرض ، وطبقاتها ، وجبالها ، ووديانها فقال : « والارض مددناها والقينا فيها رواسى ، وانبتنا فيها من كل زوج بهيج » (١) وقال : « ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف الوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف الوانه كذلك ، انما يخشى الله من عباده العلماء » (٢) .

---

(١) سورة ٥٠ ، آية ٧

(٢) سورة ٣٥ ، آية ٢٧ ــ ٢٨

فوصف الجبال في هذه الآيات ذو علاقة بعلم الجيولوجيا او علم طبقات الأرض ، كما أن اختلاف الوان الدواب ذو اتصال بعلم الحيوان ، واتصال الوان الناس ذو علاقة بعلم الانسان . والذين يدركون هذه اللمحات ، ويفهمون اسرار هذه المخلوقات هم العلماء بحق ، الذين يخشون الله حق خشيته .

وعلوم النبات ذات وجود خاص في آيات القرآن . وحسبك أن تقرأ هذه الآيات لتدرك أي اعتناء خصها القرآن به :

- « فلينظر الانسان الى طعامه ، انا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شقا ، فأنبتنا فيها حبا ، وعنبا وقضبا ، وزيتونا ونخلا ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا ، متاعا لكم ولأنعامكم » (١) .
- « فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها » (٢) .
- « انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه » (٣)
- « ان في خلق السموات والارض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع

---

(١) سورة ٨٠ ، آية ٢٤ — ٣٢

(٢) سورة ٣٠ ، آية ٥٠

(٣) سورة ٦ ، ٢ آية ٩٩

الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض ، لآيات لقوم يعقلون » (١) .

ولعل هذا المجال من الحديث عن الأرض وخيراتها قد ظفر بأكبر قسط من الآيات القرآنية ؛ لأنه ذو أهمية مزدوجة ، فالحديث عنه اما لبيان نعمة الله التي اسبغها على خلقه ، حين أقدرهم على الزرع والحصاد ، وأما لبيان امكان البعث ، كما أن الخلق ابتداء ممكن وواقع : « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه » (٢) . « وترى الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج » (٣) . والخطاب فى الآية الاخيرة موجه الى المستريبين فى البعث .

واذا وجدت فى الآيات السابقة اشارة الى ما بث الله فى الأرض من دابة فان فى القرآن آيات تدعونا الى العلم بشئون هذه الدواب ، وتلفتنا الى كيفيات خلقها ، وتقرنها وهى مخلوقات صغيرة بمخلوقات اعظم منها : « أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت ، والى الجبال كيف نصبت ، والى الأرض كيف سطحت » (٤) .

---

(١) سورة ٢ ، آية ١٦٤
(٢) سورة ٣٠ ، آية ٢٧
(٣) سورة ٢٢ ، آية ٥
(٤) سورة ٨٨ ، آية ١٧ - ٢٠

ومن الآيات ذات الدلالة العميقة فى مجال البحث العلمى قوله تعالى : « وفى أنفسكم افلا تبصرون » (١) .

فهى ذات مغزى نفسى سيكلوجى ، كما أنها تدعو الى البحث فى مجال الطب البدنى ، وهو ما تصدق عليه كلمة (انفسكم) من حيث المادة ومن حيث المعنى .

بل أن فى القرآن آيات تدعونا الى النظر فى أحوال الناس ، ودراسة قواعد التفاضل فيما بينهم ، وكيف كانت عواقب الظالمين ، ومصارع الطغاة :

- « افلم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم » (٢) .
- « فانظر كيف كان عاقبة مكرهم انا دمرناهم وقومهم اجمعين » (٣) .
- « أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض » (٤) .

والدعوة الى النظر فى الناس هنا ، دعوة الى العلم بالتاريخ ، وقوانين الأجتماع يدعمها الدعوة الى العلم بالحساب والرياضة وحركة الزمن : « هو الذى جعل الشمس ضياء ، والقمر نورا ، وقدره منازل لتعلموا عدد

---

(١) سورة ٥١ ، آية ٢١
(٢) سورة ٤٠ ، آية ٨٢
(٣) سورة ٢٧ ، آية ٥١
(٤) سورة ١٧ ، آية ٢١

السنين والحساب » (١) . « وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل ، وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ، ولتعلموا عدد السنين والحساب » (٢) .

وهكذا لم يترك القرآن مجالا من مجالات العلم الا دعا الانسان الى النظر فيه ، واستغلاله . سواء أكان ذلك فى السماء أم فى الأرض . فى البر أم فى البحر ، فى أعماق الماء ام فى أجواز الفضاء .

العلم والعمل :

ولنا هنا ملاحظة ينبغى أن نركز عليها ، هى أن القرآن يقرن العلم دائما بالعمل ، ومعنى العمل هنا شامل للتطبيق الفورى لكل ما يعلمه المرء من معارف نظرية ؛ والعلم بلا عمل لغو باطل ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم » .

واستمع الى هذه الآية التى تتحدث عن العلماء الراسخين وسلوكهم فى المجتمع : « لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك ، والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة ، والمؤمنون بالله واليوم الآخر ، أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما » (٣) .

---

(١) سورة ١٠ ، آية ٥
(٢) سورة ١٧ ، آية ١٢
(٣) سورة ٤ ، آية ١٦٢

صحيح أن العمل هنا وفى كثير من المواضع مراد به السلوك الخير ، فى مواجهة مسالك الاشرار ، لكن الحاح القرآن على العمل ، فى صيغ مطلقة غير محدودة يدلنا على انه يريـد من اتباعه حركة دائمـة فى اتجاه التطبيق لما يعلمون : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون الى عالم الغيب والشـهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » (١) .

ومن الصعب الفصل بين مستويات العمل لتخصيص الآية ببعضها دون بعض ، والمعلوم أن اشتغـال الانسـان بالعمل من أجل الحياة هو فى نظر الدين من أعظم القربات وأفضل العبادات والرسول يقول : « ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده » . فليس العلم فى نظر الاسلام نصوصا تحفظ ، ويقتصر على حفظها ، وانما هو فى المقام الاول عمل وسلوك ، ولذا وجدنا أصحاب رسـول الله صلى الله عليه وسلم يتعلمون بضع آيات من القرآن فيقفون عندها لا يحفظون غيرها حتى يعملوا بما فيها .

ومن هنا تعود الوجدان المسـلم أن يحـاول ترجمة الآيات الى سلوك عملى ، فانتقل اثر هذه العادة الى الحرص على تطبيق كل ما يعرفه من قواعد ونظريات ليقرن العلم دائما بالعمل ، فى صورة من التكامل والتوازن داخـل كيان الانسان المسلم .

---

(١) سورة ٩ ، آية ١٠٥

مكانة العلماء :

بقى بعد هذا أن نشير الى مكانة العلماء فى القرآن . وقد شرفهم الحق تبارك وتعالى تشريفا لم يخص به أحدا غيرهم ، فهم أهل خشيته وتقواه : « انما يخشى الله من عباده العلماء (١) » . وهم أصحاب الحق وأهل الصواب أينما كانوا ، حين يضل الناس وتخدعهم بوارق الأحداث : « وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ، ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا (٢) » . وليس من المعقول أن « يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » (٣) . عند من لديه أدنى ذرة من عقل « انما يتذكر أولو الألباب (٤) » . ومن أجل هذا جعل الله لهم مكانا سنيا ومقاما عليا « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات (٥) » . صدق الله العظيم .

---

(١) سورة ٣٥ ، آية ٢٨
(٢) سورة ٢٨ ، آية ٨٠
(٣) سورة ٣٩ ، آية ٩
(٤) سورة ٣٩ ، آية ٩
(٥) سورة ٥٨ ، آية ١١

و .. الانتاج

، ولا بد قبل ان ندخل الى الموضــوع ـ من أن نحــدد مصطلحاتنا ، كما هو دابنا ، وكلمة (الدين) من بين الألفاظ التى تحتــاج الى حــديث . وربما القى عليها ضوءاً كاشفا ان نعــود الى ما سبق أن قلناه عن معنى (الاسلام) والله عز وجل يقول : « ان الدين عند الله الاسلام » (١) . وان كان مفهوم الدين متصلا دائما بتــكوين الانســـان ، فيما اكدته بحوث العلماء ، و (الدين) فى معناه البسيط يعنى احساس الانسـان بالخضــوع لقــوة أعلى ، واحتياجه الى هذه القوة فى مواجهة مشكلات الوجود ، وبعبارة أخرى : ارتباط الانســان بمعبود غيبى بالمعنى العام .

لقد طرح من قبل سؤال اورده مؤلف كتاب (الظــاهرة القرآنية) :

هل الدين بهذا المعنى فطرة وجزء من كيان الانسـان ؟

---

(١) سورة ٣ ، آية ١٩

او هو مجـرد حـدث تاريخى ثقافى مـكتسب فى حياة الانسـان ؟

ولقد اكدت الملاحظة العلمية لمراحل تطور الانسان انها تحتوى سطورا من الفكر الدينى حتى فى المراحل البدائية. سواء أكان ذلك فى صـورة شعائر أو طقوس ، مرسومة أو منقوشة على جـدران المعابد والهياكل وبيوت النار . حتى لنجد ان تطور هندسة البناء قد سار جنبا الى جنب مع الفكر الدينى ، الذى طبع قوانين الانسان وعلومه ، فما من حضارة الا وللدين فى خلقها نصيب ، بـل ان الدين هـو صاحب الفضـل الأول فى ابداع الحضـارات الانسانية ، فالحضارة لا تكون الا حيث يمتد نظر صاحبها الى ما وراء حياته الأرضية أو حياته الراهنة .

لذلك نجـد أن علم الاجتماع يطلق على الانسـان انه (حيوان دينى) ، ويعنى بذلك أن الدين جزء من تكوينه ، وانه غريزة فطر عليها ، ولا ريب أن هذا المعنى هو ماتشير اليه الآية الكريمة : « فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن اكثر الناس لا يعلمون » (١) .

لقد انتهى علم الاجتماع الى الحقيقة التى أشارت اليها الآية ، بعد نزولهـا بأكثر من ثلاثة عشر قرنا ، وبعـد أن

---

(١) سورة ٣٠ ، آية ٣٠

حاولت المذاهب المادية أن تضع تفسيرا لنشأة الكون ، ولبدء الخليقة ، دون أن تبلغ هدفها ، أو تحقق مقنعا للعقل الانسانى ، حتى اذا ثبت افلاسها عن مواصلة المحاولة اعلنها العلم صريحة واضحة ، ان الدين ليس كما يقول الماديون مرحلة فى تاريخ الحضارة ، أو هو ـ كما يدعون ـ مخدر للشعوب عن مواصلة الكفاح لتحقيق أهدافها ، ولكنه صانع حضاراتها ، وصانع انسان الحضارة نفسه ، قبل أن تكون الحضارة .

ولقد اتضح الآن وبعد أن مات ماركس بتسعين سنة أن دعواه بأن الدين مخدر للشعوب كان مقصودا بها الدين الذى ثار عليه الأوربيون فى القرن الثامن عشر فشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس ، والذى ثاروا عليه فى القرن التاسع عشر حين تحالف رجاله مع أرباب رءوس الأموال ابان الثورة الصناعية .

وفى نفس الوقت الذى كان رجال الكنيسة فى أوربا متحالفين مع البرجوازيين ضد البروليتاريا على حد تعبير الماركسيين ـ كان الاسلام هنا يكافح ضد الاستعمار ، وكان علماء الدين من الأزهريين يقودون الجماهير فى معارك دامية ضد الظلم فى أواخر القرن التاسع عشر .

والفرق بين الموقفين هو الفرق فى نوعية الرجال ، أما الدين فحاشاه أن يأمر بمنكر ، أو ينهى عن معروف ، أو

يحالف عن مصـــالح الجماهير ، أو يعطل التقدم فى نواحى الحياة المختلفة .

وليس من الفضول ان نقرر هنا أن الانسان كلما تعمق فى المعرفة ازداد ايمانا بالله خـــالق الحياة والأحياء ، على حين انه كلما أوغـــل فى متاهة الجهـــل استطاع ان يكون جاحدا موغلا فى الجحود .

ومعنى هذا ان الايمان هو اخـــو العلم وثمـــرته ، وأن الجحـــود وليد الجهـــل ، الذى نراه متعـــالما فى بعض الأحيان .

لقد أقام الدين اقـــوى البراهين على وجـــوده ، وعلى حقيته ، وعلى سلامة البناء الذى يقيمه فى فطرة الانسان ، والذى يعنى ارتباطه بخالقه ، ارتباط العابد بالمعبود . وأول البراهين هو حركة النبوات التاريخية ، التى حدثنا عنها الله فى كتبه المنزلة . وهى حركة غنية بعناصر الصـــدق التى لا تغلب ، يدركها من يتأملها بأدنى النظر .

واجلى هذه البراهين نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ومعجزتها الخالدة : القرآن ، حتى ليمكن القول بأن للدين فى فلك النفس الانسانية مكان السنة الكونية ، كالجاذبية ، فى مجـــال الطبيعـــة ، على حـــد تعبير أحـــد المفـــكرين المعاصرين (١) .

---

(١) هو الاستاذ مالك بن نبى ، المفكر الجزائرى المسلم ، وقد قبسنا هنا بعض افكار كتابه « الظاهرة القرآنية » من ترجمتنا .

واذا كان الدين بهذه المثابة فانه ولا شك مع العلم : لا ضد العلم ، ومع الحضارة لا ضد الحضارة ، ومع التقدم لا ضد التقدم ، ومقتضى ذلك ان تعاليم الدين لا بد أن نجد فيها ما يحقق للانسانية بعامة ، وللمجتمع الذى نعيش فيه بخاصة ، كل ما يدعو الى الانتاج ، سواء فى روحه او فى نصوصه .

وبدهى أن ننظر ابتداء الى تقسيم الدين للحياة . وكيف اعتبرها مرحلتين :

١ ــ الحياة الدنيا .

٢ ــ الحياة الأخرى .

ثم كيف ربط الدين بين الحياتين ربطا محكما اساسه العقيدة . التى لا يعيش الانسان بدونها ، فالدنيا دار عمل ؛ والآخرة دار جزاء .

وفكرة العمل والجزاء هى فى الواقع أعظم ما يربط الانسان بالحياة ، وأعظم ما يضبط سلوكه فيها ، فما من عمل الا وله جزاء ؛ عاجل أو آجل ، والذى يعطى الجزاء هو نفسه مانح القدرة على انجاز العمل ، فالعمل والجزاء كلاهما من رب العمل ، وهذه الصورة الوحيدة التى يجدها الانسان خالية من ارادة الاستغلال ، أو من صور النزاع التى تكون بين العامل ورب العمل من أجل عدالة الجزاء .

وفلسفة الدين التى تجعل الجزاء الاخروى اساس العقيدة قد عملت فى الحقيقة على حفز العاملين ليضاعفوا انتاجهم ، وليضاعفوا كذلك آمالهم فى الحصول على ربح مجز ، هو فى الدنيا من حلال ، وهو فى الآخرة من فيض الله ذى الجلال .

ومن هنا ندرك اشارات القرآن الكثيرة التى يطلب فيها الى المؤمنين ان ينفقوا أموالهم فى سبيل الله ؛ يعنى بلغة العصر : أن يودعوا أموالهم فى بنك الاستثمار الالهى : « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له ، وله أجر كريم » (١) . و « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة ، والله يقبض ويبسط واليه ترجعون » (٢) . و « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم » (٣) . و « أن الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة » (٤) .

وهكذا كلما تتبعنا آى القرآن وجدناها تتحدث عن عمليات استثمار وابداع فى يد الله ؛ اى فى حاجات المجتمع ؛

---

(١) سورة ٥٧ ، آية ١١
(٢) سورة ٢ ، آية ٢٤٥
(٣) سورة ٢ ، آية ٢٦١
(٤) سورة ٩ ، آية ١١١

فليس اقــراض الله في هذه الآيات الا اقــراض عباده ، المستحقين ، المحتــاجين ، والنفقة على أهــل الحاجات ، وستر عوراتهم ، ورصد المال في صــالح الجماعة المسلمة ابتغاء مرضاة الله .

ويخطىء من يتصور ان في الأمر دعوة الى السرف او السفه او اضاعة المال ، فذلك ما حذر منه رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : « انهاكم عن قيل وقال ، وكثرة السؤال واضاعة المال » .

وليس تحريم كنز المال ، الذى اتخذه الاسلام اتجاها ثابتا في ميــدان الحياة الاقتصــادية الا اروع دعوة الى الاستثمار وتشغيل الأمــوال : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم . يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفســـكم ، فذوقوا ما كنتــم تكنزون » (١) .

واذا كانت عملية استثمار المال مقصــودا منها دائما توقع العائد ، وهو أمر يحــرص عليه الاسلام ، فان أعظم عائد يتوقعه المؤمن من استثماره للمال أن تتراكب الفائدة المقدرة له بحسب نيته واخلاصه ، لتصبح يوم القيــامة ، حين يحتاجها ، اضعافا مضاعفة ! !

---

(١) سورة ٩ ، آية ٣٤ ـ ٣٥

ليس هذا ايغالا فى الخيال ، ولكنه حقيقة دينية نؤمن بها ، ونموت عليها ، وبها نلقى الله سبحانه . وليس هذا بمانع أبدا أن يأخذ الانسان عائد استثماره ، بشوط الا يكون فيه (ربا) ، والله سبحانه وتعالى يقول : « يمحق الله الربا ، ويربى الصدقات » (١) . ويقول : « وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » (٢) .

هذا فى باب استثمار الأموال ، أما فى باب استثمار الجهود ، فان النصوص الدينية كثيرة ، تدعونا الى هذا النوع من الاستثمار من أجل مضاعفة الانتاج . فمتى توفرت الأموال المبذولة للمصلحة العامة ، أصبح الأمر بحاجة الى حشد الجهود ، وتجنيد الطاقات ، ومن الآيات الكريمة التى تشير الى هذا المعنى : « وآية لهم الأرض الميتة احييناها ، واخرجنا منها حبا فمنه يأكلون . وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون . ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم ، أفلا يشكرون » (٣) .

وهذا حديث من الله سبحانه ، يمن فيه على عباده بنعمه ، ولكنه يسجل لهم ما بذلوا من عمل ، فى سبيل استخراج الثمر ، فمن حقهم أن يأكلوا منه ، فكان الآية

---

(١) سورة ٢ ، آية ٢٧٦

(٢) سورة ٣٠ ، آية ٣٩

(٣) سورة ٣٦ ، آية ٣٣ - ٣٥

تقول : ان من لا يعمل لا يستحق ان يأكل ، ما دام قادرا على العمل .

والأحاديث التى تسجل هذا المعنى كثيرة منها : « ما أكل احد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وان نبى الله داود كان يأكل من عمل يده » ، « من أمسى كالا من عمل يده أمسى مغفورا له » ، ويد العامل : « يد يحبها الله ورسوله » .

وهو تمجيد ينصب على العمل ، باعتباره استثمارا للجهد الانسانى ، كما ينصب على أداة العمل ، وهى يد العامل ، التى هى دائما محط رضوان الله تبارك وتعالى .

اما الآية التى نرى انها حضت على الانتاج ، حتى بلغت به أقصى طاقة ممكنة ، وشحذت اليه الهمم فى حال تشبه الحمى ، ودفعت عجلته الى غير ما حدود ، فهى قوله تعالى : « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم » (١) .

وكل كلمة فى هذه الآية موحية بمعنى الانتاج ، داعية الى مضاعفته الى ابعد الحدود. فقوله تعالى : « واعدوا » لا يمكن ان يكون تنفيذه الا فى زمن السلم والرخاء والسعة ، وسيأتى ترتيب الهدف من الاعداد ، والتصريح به على انه اساسا (الارهاب والتخويف) أو ما يسمى بلغة العصر

---

(١) سورة ٨ ، آية ٦٠.

(القوة الرادعة التى تحول دون نشوب العدوان) ، وهو قوله تعالى : « ترهبون به عدو الله وعدوكم » .

وقوله تعالى : « ما استطعتم » يصدق على كل قوة يكون بها الارهاب والردع ، مادية كانت أو معنوية ، وبشرط أن يكون الاعداد فى حدود الطاقة المستطاعة . ولا ننسى أن الآية ذكرت فى الكلمة الثانية منها أن الاعداد (لهم) ، أى للأعداء ، وظهـور شبح الأعداء فى أفق الانتاج هو أشد الحوافز فاعلية فى أعصاب العاملين ، لأن العدو ينتج ايضا ما يريد به تحطيم بلادنا وتقويض وجودنا ، فاذا كان هذا الخيال المفزع يطاردنا دائما ونحن نعد قوانا ، فان الدافع يكون حينئذ فى درجته القصوى ، لأن من بين الدوافع الى مثل هذا الانتاج ستكون غريزة حب البقاء ، وغريزة الدفاع عن النفس ، كما ستدفعنا الى مضاعفة الانتاج عاطفة حب الوطن وعاطفة بغض العدو ، وعاطفة حب الانتصار ، وكل هذه الحوافز النفسية تحملها الآية فى كلمتها : (وأعدوا لهم) ، فلو اننا اتخذنا هذه الآية شعارا لمصانعنا ومعاهدنا ومزارعنا ، واشعرنا بمعناها العاملين فى كل ميدان لتكفل ما تحدثه من تأثر وانفعال بتحقيق أهداف الخطة الانتاجية فى أقل زمن ممكن .

ولا ريب ان من مظاهر مضاعفة الانتاج اختصار الحجم الزمنى للخطــة ، واى تخطيط انتاجى لا بد أن يدخل فى اعتباره احتمال اختصار الزمن المقدر لتنفيذ خطته ، وهو احتمال تتكفل بتحقيقه ارادة الأفراد .

ولدينا فى هذا الصـــدد مثالان من واقع التجــربة الانسانية :

اولهما : ما يروى من ان الصحابى الجليل عمار بن ياسر كان وهو يشترك فى بناءِ مسجــد المدينة يحمل على كتفه حجرين ، على حين كان الصحابة الآخرون يحملون حجرا واحدا ، فلما رآه الرســول صلى الله عليه وسلم قال له : « للناس يوم القيامة أجر ، ولك أجران » .

وثانيهما : ما يذكــر من أن أحــد العمــال ، واسمه (اسطخانوف) قد ضرب للطبقــة العاملة فى روسيا مثلا ابان تنفيذ المشروع الأول للسنوات الخمس ، وذلك حين رفع مستوى الانتاج اليومى فى مناجم الفحم الى الضعف ، فاختصر بذلك الزمــن اللازم لتنفيذهــا الى قــريب من النصف .

ايمــكن ان نفــكر فى هــذه الأمثلة الرائعــة فى تاريخ الانتــاج البشرى ، دون أن نقــدر العــوامل النفسية حق قدرها ، فان الذى دفع عماراً الى مضاعفة الانتاج ، ود[illegible] سلمان الفارسى رضى الله عنه الى بذل ما بذل من جهد ف[illegible] حفر الخندق حول المدينة ابان حصــار الأحزاب ، هو [illegible]

مغزاه تقريبا الذى دفـع اسْطخانوف الي مضاعفة انتاجه ليصبح قدوة للعاملين فى المنـاجم ، وذلك كله ناشىء عن الدافع الايمانى بأهداف المجتمع ، ولكنه لدى الانسان المسلم ينفرد برجاء أن يكون العائد مضاعفا الى ما شاء الله ، يوم القيامة (وترجون من الله ما لا يرجون) .

فهناك فى أعصاب الانسـان المسلم حافز الاحسـاس بهدف الانتاج ، وبالظروف التى يتم فيها ، ويستخدم لها ، ثم الايمان بأن ما عند الله خير وأبقى .

أيمكن بعد ذلك ان يكون مجتمع المسلمين اقل انتاجا من مجتمع الملاحدة والصهيونيين ؟!

وقضية التحرر الاجتماعى

اذا تذكرنا ما سبق أن قلناه عن (الدين) فى فصل (الدين والانتاج) ، فاننا سوف ندرك تماما رسالة الدين ، وانها لم تكن فى جوهرها سوى تحرير كامل للانسان المسلم من عبادة المخلوقات ، أو القوى الخفية ، ومن جميع القيود التى تعطل قدراته أو تثقل وجدانه ، أو تعوق نشاطه ، أو تسخره لأهداف مادية .

ولكى ندرك مغزى هذا الكلام يحسن أن نذكر عينات من المعبودات التى اتخذها الانسان خلال مراحل تاريخية ، لقد عبد الانسان من بين ما عبد : النار والطبيعة والخير والشر والنور والظلمة وعبد الأفيال والقردة والأفاعى والبقرة وعبد الشمس والقمر ، وزاد فعبد بعض أفراده ممن ادعوا الألوهية ، أو ألبسهم اتباعهم ثياب الآلهة ، بل وزاد فعبد بعض أعضاء من جسده ، ولا زالت بالهند طوائف تعبد آلة الجنس والتناسل فى بيت نصبوا لها فيه تمثالا .

وعبد الانسان مصنوعات صاغها بيده ، مبالغة فى تجسيد خيالاته عن الاله ، فنحت الأصنام أو عجنها ثم اكلها حين جاع .

وحين أرسل الله سبحانه رسله حرف أتباعهم جوهر ما دعوا اليه ، فادعى اليهود أن الله سبحانه ، اله لهم وحدهم ، دون غيرهم من الأمم ، فالاله عندهم اله قومى ، لا تتنزل رحمته على غير اليهود ، والى هذه الأنانية فى العقيدة ترجع كل رذائل بنى اسرائيل التى عرفوا بها من دون الناس وزادوا فى الضلال فزعموا أن (عزيرا) هو ابن الله .

وادعى النصارى الوهية المسيح ، أو تجزئة الاله الى اجزاء ثلاثة أو أقانيم ثلاثة : الأب ، والابن ، والروح القدس. وقليل منهم الذين يؤمنون بأن المسيح عبد الله ورسوله ، والله سبحانه يقول : « لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ، ولا الملائكة المقربون ، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم اليه جميعا » (١) .

وجاء الاسلام ، فكان خاتما لرسالات السماء ، داعيا الى توحيد الله ، وتحرير الانسان من كل هذه الآصار التى تكبله . فهذه المعبودات كلها ليست شيئا ذا قيمة ، اذا ما قيست بمبدأ الاله الواحد الخالق القادر . انها لا تغنى الانسان شيئا فى مواجهته القوى الكونية لأنها ليست سوى مخلوقات أو ظواهر فى الكون ، وما ينبغى للانسان الذى كرمه الله بالعقل أن يكون محدود الخيال ، قاصر التصور لاله على كونه مجرد ظاهرة كالنور والظلمة ، او مخلوق حقير كالقرد أو الصنم ، أو كبير كالشمس .

---

(١) سورة ٤ ، آية ١٧٢

ان تلك المعبودات تحجب تصور الانسان عن ان يمتد ليدرك قوى الكون الفسيح ونواميسه ، وهو أحرى اذا ما اكتشف قوة أعظم حجما أو تأثيرا من معبوده أن يصرف اليها عبوديته وبذلك يظل حائرا بين المخلوقات الكثيرة . ما دام بعيدا عن معرفة الخالق الواحد ، الذى لا يتعدد ولا يتنوع ، وقديما تردد ابراهيم فى صدر شبابه بين الكوكب والقمر والشمس ، حتى أنتهى الى معرفة الله الواحد : « انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا » (١) .

« قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد »(٢).

وبهذا التوحيد المطلق لله استطاع الاسلام أن يطلق قوى الانسان الخلاقة بالنظر فى ملكوت السموات والأرض ، وما خلق الله من شىء ، لأن الانسان بمعرفته لله قد تحرر من الخوف من ظواهر الطبيعة ، أو من سائر المخلوقات ، فأقبل عليها يفتش عن أسرارها ، ويتعلم نواميس الخالق فى صنع الخلائق : « صنع الله الذى أتقن كل شىء » (٣) .

هذه أولى الخطوات فى فهم دور الدين فى التحرر الاجتماعى .

---

(١) سورة ٦ ، آية ٧٩
(٢) سورة ١١١ ، آية ١ - ٤
(٣) سورة ٢٧ ، آية ٨٨

على أن الدين قد واصل طريقه فى تحرير المؤمن بعد أن غرس فى قلبه عدم الخضوع الا لله ، وكان اول درس لقنه اياه : « ان الناس سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لأبيض على أسود الا بالتقوى » . وقد تأكدت هذه المساواة المطلقة فى وقفة المؤمنين بين يدى الله فى الصلاة ، فليست هنالك صورة أكثر تعبيرا عن المساواة بين الناس ، كما يحدث فى الصلاة ، واذا استقر مبدأ المساواة الاخلاقية بين المؤمنين ، امتنع أن يتميز مسلم على مسلم فى سائر النواحى المادية ، لأن جانب الروح والأخلاق اعظم اهمية لدى المسلمين .

ومن ثم وجدنا أن من أول الآيات التى نزلت فى المرحلة المكية فى السنوات الخمس الأولى قوله تعالى : « آمنوا بالله ورسوله ، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » (١) . وهذه أول آية ، بل هى أول صرخة موجهة الى الانسانية كلها ، تحدد علاقة الفرد بما يملك من مال ، قد يستغله لاستعباد الخلق ، واذلالهم .

انها تنادى بأن المال مال الله ، وبأن وجوده فى أيدى الخلائق انما هو على سبيل الاستخلاف عن الله ، المالك الحقيقى ، ولذلك ينبغى أن ينفق هذا المستخلف من مال الله فى كل غرض يدعو اليه دين الله .

---

(١) سورة ٥٧ ، آية ٧

مثل هذا التصور فى تحديد علاقة الانسان بالثروة يترتب عليه ألا يصبح المال قوة تستغل فى استعباد الضعفاء والفقراء ، بل يحس الانسان أنه ليس سوى موظف فى ادارة المال وتوجيهه الى مصلحة الجماعة ، وفى الأغراض التى ندبه اليها القرآن .

وبذلك يحس مالك المال أنه انما يستمد قوته الحقيقية من حسن توجيهه لمال الله ، لا من شدة كزازته ، أو بالغ أثرته وتحكمه ، فالقوة فى هذه الحالة ناشئة عن فضيلة ، أى عن قيمة مثالية تقوم على أساسها حياة المجتمع الاقتصادية .

كما يحس الفقراء أنهم غير مستعبدين لما فى ايدى غيرهم ، لأنه ليس فى أيدى غيرهم — على الحقيقة — شىء ، فهم ليسوا سوى موظفين فى توجيه مال الله وليست هذه الوظيفة سوى تكليف غير مرتبط بميزة سياسية أو اجتماعية .

وحتى لا تنشأ فى المجتمع الاسلامى طبقة ثرية مترفة ، وجدنا أن القرآن يدعو الى طرح رءوس الأموال فى مصالح المسلمين ، بتحريمه كنز المال ، (وقد سبق فيه حديث مستفيض) .

كما انه يدعو الى تخصيص جانب من عائد الانتاج فى المجتمع لصالح المسلمين الفقراء على الأخص : « ما أفاء الله

على رسـوله من أهل القرى فـلله وللرسول ولذى القربى واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل » (١) .

ويعلل تخصيص هذا البند لهذه الأغراض بأنه يهدف الى توسيع نطاق الملكية الاقتصادية ، بحيث لا يصبح المال فى يد طبقة معينة دون غيرها ، يقول تعالى : « كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » (٢) ، أى لكيلا يصبح المال حكرا على الأغنياء فيحرموا منه أصحاب الحقوق التى شرعها الله حين قال : « وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » (٣)

فأنتم ترون أن الاسـلام ضـد استئثار طبقة معينة بالقوة الاقتصـادية ، وهو يريد بذلك الا يحس الفـرد فى حال حرمانه او عجـزه بأدنى مسافة تفصله اجتماعيا عن أصحاب هذه القوة ومالكيها أو المستخلفين فيها .

وانكم لتجدون فى القرآن نغمـة من التنديد بالمترفين والأغنياء ، تسجل عليهم أنهم أعداء الحق ، وخصوم دعاته : « وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قـرية من نذير الا قال مترفـوها انا وجـدنا آبـاءنا على أمـة وانا على آثارهم مقتدون » (٤) .

---

(١) سورة ٥٩ ، آية ٧

(٢) سورة ٥٩ ، نفس الآية

(٣) سورة ٥١ ، آية ١٩

(٤) سورة ٤٣ ، آية ٢٣

« واذا اردنا ان نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » (١) . فهؤلاء المترفون حلفاء الجمود والتقليد ، وادوات الفساد ، ومقدمات التدمير الاجتماعى . وليس يوجد فى المجتمع مترفون الا حين يستأثر بالثروة جماعة من الناس من دون غيرهم ، فحينئذ يكون قدر هؤلاء جميعا قد حان ، فساد فى الحياة ، وتمزق فى المجتمع ، وصراع بين المالكين والمعدمين ، مهما حاول أصحاب السلطة من المترفين أن يزيفوا الأوضاع الفاسدة ، وان يزوقوها فى أعين الجماهير ، فالترف أشبه بداء القلب يفتك بالأجسام الضخمة ، والنحيلة على حد سواء .

ولذلك نجد القرآن قد الغى نصا كل احتمال للتفاوت الاجتماعى على أساس الملكية الاقتصادية ، فقال تعالى : « والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق ، فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت ايمانهم ، فهم فيه سواء ، افبنعمة الله يجحدون » (٢) .

وفى هذه الآية نجد أن الحق سبحانه وتعالى يمن على الأغنياء بما فضلهم به على الفقراء ، وعلى السادة بما فضلهم به على العبيد ، والتفضيل هنا مقصود به الاختيار للاستخلاف فى مال الله ، ثم يسجل الله سبحانه حقيقة هى ان العبيد والسادة فى حق المال سواء ، وأن من التنكر لنعمة

---

(١) سورة ١٧ ، آية ١٦
(٢) سورة ١٦ ، آية ٧١

الله وفضله عدم رد الأرزاق على مستحقيها ، فذلك جحود وكفران بنعمة الله : « فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم ، فهم فيه سواء » . وليس بعد ذلك صراحة تحسم قضية تفضيل بعض الناس على بعض فى الرزق ، اى توظيف بعض الناس فى مهمة توجيه مال الله الى مصالح المسلمين ، احرارا كانوا أو عبيدا ، فالناس فى هذا الحق سواء .

تلك هى نظرة الاسلام الى علاقة الفرد بما يحوز من مال ، لا فضل له فى خلقه وايجاده ، وانما الفضل كله لله .

ولهذا الموقف فى تكوين الفرد المسلم اثر عميق فى سلوكه الاجتماعى ، ذلك انه لا يقبل بعد أن اعتنق وحدانية الله أن يذل لغيره ، أو يكون تابعا ، أو امعة

وحسبنا أن نذكر هنا أن الله سبحانه قد أمر عباده بالثورة على الظلم ورفضه ، اذا هم واجهوه فى حياتهم ، مهما يكن مصدره ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « ان الناس اذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يده أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده » .

ويقول محددا شخصية المؤمن ومعالمها الصريحة : « لا يكونن أحدكم امعة ، يقول : ان أحسن الناس احسنت وان أساءوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم ان أحسن الناس أن تحسنوا ، وان أساءوا أن تجتنبوا اساءاتهم » وهو تعبير

اخلاقى عن الاستقلال الذى يريده الدين للانسان المسلم المتحرر من جميع أشكال التبعية والعبودية .

فاذا عجز عن تحقيق استقلاله فى ارض أو عجز عن دفع الظلم عن نفسه وعن جماعته ، وجب عليه أن يهجر هذه الأرض الى أرض الله الواسعة ، ينشد الحرية ويرفض الظلم ويطلب الأمان لدينه ولنفسه ، والله يقول : « ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، قالوا فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا . الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . فأولئك عسى الله أن يعفوا عنهم وكان الله عفوا غفورا » (١) .

أهناك دعوة الى الحرية أعظم من هذه ؟ أو اغراء بالحرص على تحقيق التحرر الاجتماعى يعدل هذا الاغراء ؟ ذلك شىء لا يعرفه غير الفكر الاسلامى ، الذى يرفض الطبقية القائمة على الغنى والفقر ، أو القوة والضعف ، او السيادة والاسترقاق ، فالناس فى حق الحياة سواء ، وفى حق الحرية سواء ، ولا يمكن لمخلوق أن يصادر حرية مخلوق آخر لأى اعتبار ما دام مواطنا صالحا ، كما أن احترام حرية الآخرين والحرص عليها من قواعد الدين وآدابه .

---

(١) سورة ٤ ، آية ٩٧ — ٩٩

وما دمنا قد وصلنا الى هذه النقطة فان من الواجب ان نتحـدث عن مشـكلة الرق فى المجتمع ، وكيف واجهها الاسلام .

لقـد جـاء الاسـلام والمجتمـع منقسم الى طبقتين متميزتين ، طبقة السادة ، وطبقة العبيد . وقد كان هذا الانقسام موجودا حيثما وجد الانسان ، فى دنيا الفرس ، وفى دنيا الرومان ، وفى دنيا العرب ، وهى المجالات الثلاثة التى كانت موجـودة آنذاك فى العالم القديم . بل ان دنيا العرب ، لم تعرف الاسترقاق الا نقلا وتأثرا بما جاورها من أمم ذات حضـارة عـريقة ، قائمة على هذه الطبقية الجائرة التى يتحـول بها ، أو فى ظلها ، الانسان الى شيء مملوك ، قابل للتصرف بالبيع والهبة ، بل والقتل .

ومن المأثور من قواعد القـانون الرومـانى القديم أن للدائن الحق فى الاستيلاء على مدينه وكل ما يتعلق به من ابناء وأمـوال ـ ان وجدت ـ لقاء دينه ، وله فى حالة عدم الوفاء أن يبيعه وأن يقتله ان شاء .

وكان الرومـان يعتبرون أن الدنيا عالمان : عالم رومـا وهم الأحرار ، وعالم ما وراء نهـر التيبر ، فى روما ، وهم العبيد .

الى هذا الحـد من الاستهانة بانسانية الانسان بلغ وضع بعض بنى الانسان

وقد آل هذا الوضع الظالم الى أن أصبح واقعا اقتصاديا ثابتا مستقرا ، تقوم عليه الحياة فى المجتمع الجاهلى ، تابعا فى ذلك سائر المجتمعات المجاورة .

وجاء الاسلام ، ومن مبادئه تحرير الفرد من الرق الاجتماعى وليس مما يتفق مع عقيدة التوحيد أن يستعبد انسان انسانا ، لمجرد انه متفوق عليه اقتصاديا . ومن هنا كانت التجربة الوليدة التى بدأها أبو بكر رضى الله عنه فى مبدأ الدعوة ، حين اشترى بلالا وبعض العبيد المعذبين وأعتقهم ، حتى يحس هؤلاء العبيد بأن العقيدة التى اعتنقوها قد حررتهم من العبودية للسادة ، ولو بهذه التضحية التى تحملها سخيا كريما أبو بكر رضوان الله عليه ، فأصبحوا أندادا لسادتهم ، بعد أن كانوا خاضعين لهم مستذلين . بل لقد أصبحوا أندادا لخير عناصر المجتمع ، من المؤمنين الملبين لدعوة محمد صلى الله عليه وسلم ، حتى قال عمر رضى الله عنه فى بلال : « أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا » ، وهو تسجيل لواقع اجتماعى جديد لم يحدث الا مع الاسلام .

اذن فالاسلام يحرر العبيد مما رسفوا فيه قبل ايمانهم به ، تلك هى الفكرة الأساسية التى طرأت على المجتمع العربى مع الدعوة الجديدة .

ولكى نوجز موقف الاسلام من هذا الواقع الخطير ، الاجتماعى والاقتصادى ، ينبغى أن نذكر أن المجتمع كان

قبل الدعوة المحمدية قد تعارف على وسائل للاسترقاق ، وجرى عليها التعامل فى هذا النوع من التجارة . وأول الوسائل : (الخطف والغصب والغارة والاسر) ، وهى كلها ظروف ناشئة عن سلطان القوة الغاشمة ، ثم يترتب على الاستيلاء بهذه الوسائل ضروب من التعامل التجارى ، سائدة فى المجتمعات الانسانية آنذاك .

فحين جاء الاسلام بمبادئه القيمة ، وتشريعه الذى استهدف تحرير الفرد اجتماعيا ، كان من بين نظمه أنه لم يشرع الاسترقاق الا نتيجة الأسر فى الحرب ، وحرم ما عدا ذلك من وسائل الاسترقاق .

وفيما يتعلق بالأسر فان الاسلام لم يجعل الاسترقاق هنا الا ريثما يفتدى الأسير رقبته ، بمال يرسله أهله ، أو بعمل يكلف به ، حتى يستوفى ذمته . ولعلنا نجد ذلك واضحا فى غزوة بدر ، حين كان فداء بعض المشركين مالا ، وفداء بعضهم منفعة يقدمها الى المسلمين ، فى صورة تعليم عشرة من صبيانهم القراءة والكتابة .

ومعنى ذلك أن فرصة الاسترقاق قد ضمرت ، وأن مصدره قد نضب ، فلم يعد يأتى بشىء كثير .

فأما العبيد الذين تشاء الأقدار لهم أن يمروا بهذه التجربة القاسية فلقد وقف الاسلام بجانبهم ، يدعوهم الى أن يعملوا لتحرير رقابهم بالمكاتبة ، ويدعو مواليهم أن يعينوهم على التحرر : « فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا ،

وآتوهم من مـال الله الذى آتاكم » (١) . فالسيد يعطى العبد مالا ليتجر فيه ، ويفتدى بكسبه رقبته .

والدولة توجه جزءا من دخلها لتحرير الرقاب وفكاك الأسرى ، تحقيقا لمبدأ التحرر الاجتماعى .

والمسلم منـدوب حينا الى ان يبذل مـاله فى تحرير الأرقاء : « فلا اقتحم العقبة . ومـا ادراك ما العقبة ، فك رقبة » (٢) .

ثم هو مأثور حينا آخر أن يحـرر الأرقاء ، عقـوبة له على مخالفة ارتكبها كحنث فى يمين أو قتل خطأ ، أو مظاهرة لزوجته . فمشروعية الكفارات تهدف أساسا الى توظيف بعض المال فى تحقيق مبدأ التحرر الاجتماعى .

وليس فى الأرض تشريع تتحول فيه العقوبة الى مرفق عام من مرافق التحرر الا الاسلام .

فكأن التشريع الذى ضيق الفرصة المنتجة للاسترقاق قد فتح أمامها أبوابا هائلة يتهرب منها الأرقاء الذين يسـوقهم القدر الى هذا المصير . وقد شـبه بعضهم هـذا الموقف بصنبور يصب ماء قليلا فى بالوعة واسعة لا تبقى ولا تذر ، وهى بالوعة العتق والتحرير .

---

(١) سورة ٢٤ ، آية ٣٣

(٢) سورة ٩٠ ، آية ١١ ــ ١٣

وبذلك نلمح حكمة التشريع الاسلامى ، الذى لم يحاول ان يصطدم مع المصالح الاقتصادية للمجتمع ، بهدمها مرة واحدة ، وانما هو يتدرج نحو غايته ، شأنه فى كثير من المواقف الأخرى ، حتى يتم له ما يريد .

ولقد تم للاسلام ما اراد فعلا من انتفاء ظاهرة الاسترقاق ابان ازدهار الروح الاسلامية ، فلما انتقل المجتمع الاسلامى الى حالة الاندماج بالمجتمعات الأخرى ذات الحضارة القديمة ، فى فارس والروم ، فرضت أوضاع هذه الحضارات القديمة بعض نقائصها على الولاة ، وزينت لهم بعض متناقضاتها ، فأخذوا بها ، وفشا الاسترقاق مرة أخرى فى المجتمع ، ضد تعاليم الاسلام الصريحة ، ولكنه هذه المرة كان قد ترقى فأصبح ميزة يحرص عليها كثيرون ممن يحرصون على البروز والتقدم الى أعماق القصور ، حتى كانت مرتبة الأرقاء أحيانا أفضل من مرتبة الأحرار ، وهو الوضع الذى تطور فيما بعد فوضع فى أيديهم السلطة ، خلال فترتين من التاريخ الوسيط ، تقدم فيهما المماليك على أبناء الشعب .

لم يكن الاسلام ليجيز هذه الأوضاع ، كما أنه لا يجيز وجود الجرائم فى المجتمع ، لكن ارادات الأفراد قد تعلو ، وكثيرا ما تعلو ، على أرادة الدستور ، فيجعلون من نزواتهم ، ومن أحقادهم دستورا ، يعصف بالقيم ، وينسف المبادىء الأساسية ، وتلك فترات حكم عليها التاريخ بالانحطاط .

وليس من المنطق ان نحكم على الاسلام بجرائم بعض اتباعه ومعتنقيه ، وانما ندع هؤلاء المنحرفين جانبا لنرى الاسلام المصفى ، الذى كان أول وأعلى صيحات التحرر فى تاريخ الانسان ، ولنشهد تلك النماذج الفريدة النادرة ، التى تعد قليلة كالشعرة البيضاء فى الثور الأسود ، وان بدت للعين كثيرة ، نماذج رفضت رفضا قاطعا أن تستذل عباد الله ، وأن تستعبد الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا .

وقضية التربية

وأول الملامح التى نلحظها فى (تربية الدين) أنه يربط الدنيا بالآخرة برباط تربوى ، فالدنيا فى عقيدة المسلم مزرعة للآخرة ، ولا يمكن الفصل بينهما فى وجدان المسلم الحق ، كما لا يمكن الفصل بين أجزاء الكيان الواحد ، الا بالقضاء على الكيان نفسه .

واتحاد الدنيا بالآخرة يتم عن طريق الاعتقاد بأن الانسان عبد لمعبود بحق ، لا ينبغى أن يعبد غيره ، وهذا المعبود هو الذى يربينا على عينه ورعايته ، ويتولانا برحمته ، ومن ثم كان هو (الرب) العظيم : « قل أغير الله أبغى ربا ، وهو رب كل شىء ، ولا تكسب كل نفس الا عليها ، ولاتزر وازرة وزر أخرى ، ثم الى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون . وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ، ان ربك سريع العقاب ، وانه لغفور رحيم » (١) .

وبتأملنا هاتين الآيتين نلمس ذلك التوجيه الرحيم من الله سبحانه الى الانسان ، أن يستحضر سلطان ربه الشامل

(١) سورة ٦ ، آية ١٦٤ ـ ١٦٥

على كل شيء ، حتى على ما تكسب النفس من خير أو شر ، وان يستحضر كذلك حساب الموقف العظيم : « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا » (١) . وأن يذكر دائما ان طريقة الحساب تجرى بين وضعين من صفات الرب العظيم : سرعة العقاب ، وعظمة الغفران .

وليس فى مذهب النفس أروع من هذه الصورة ، التى تضع الانسان بين قطبى الوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب ، لتصنع منه المؤمن المحاسب لنفسه ، المراقب لربه ، المنسلخ عن كل ما يربطه بغير الحق ، المتفرغ من كل هم سوى ما يصله برب القدرة والجلال .

« قل ان صلاتى ونسكى ، ومحياى ومماتى ، لله رب العالمين . لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين »(٢) .

فاذا ضممنا هاتين الآيتين الى سابقتيهما فى الحديث ، (وهما فى الواقع تاليتاهما فى ترتيب القراءة) — لحظنا المغزى العميق لاستخدام كلمة (رب) مرات خمسة ، كأنما ليشعر المؤمن بأنه حين يخرج من كل حوله وقوته ، وحين يفزع الى حمى الله تبارك وتعالى ، وحين يتجرد من الأمل فى عمله كله — حين يفعل ذلك يكون فى حمى الرحمة الالهية التى لا تنفد ، والعدل الربانى الذى

(١) سورة ٣ ، آية ٣٠

(٢) سورة ٦ ، آية ١٦٣

لا يميل ، وهو بين الرحمة والعــدل لا يفقد أمله فى ثمرة ما قدم لربه خالصا لوجه الكريم .

وثانى الملامح التى نلحظها فى (تربية الدين) ، أن هذه التربية ــ على ما قرره أحد الدارسين المعاصرين ــ لم تتجه الى المسلم فحسب ، أو الى العربى فحسب ، وانما كانت دائما تتجه الى الانسان ، حيثما كان ، وفى كل زمان . وتلك فى الواقع هى الخاصة المميزة للتربية الاسلامية عما سواها من مناهج التربية التى عرفتها البشرية فى تاريخها.

ولقد عاصرنا نحــن تطبيق كثير من مناهج التربية فى العالم ، حين نقل الينا الدارسون والمتخصصون كثيرا من معالمها وتعاليمها ، بغية تطبيقها على مجتمعنا ، عاصرنا مثلا التربية التى تهدف الى تكوين الفرد الذى يخلص لوطنه ، فهو من أجل ذلك يقدمه على جميع الأوطان ، بل ويركز ولاءه فى شخص الوطن ، حتى يعده الأرض المختارة لكل خير ، وأن ما عداها من الأوطان يجب أن يسخر لخيرها ، والتعصب للأرض ناشىء فى الحقيقة عن التعصب للجنس. فهو تعصب قائم على الدم ، ومن هنــا يعتقد صاحبــه أن قومه خير الأقوام ، وأن جنسه أعظم الأجنــاس ، وتلك هى التربية التى تعمــدتها الفلسفــة الهتلرية ، وهى التى تنتهجهــا العنصرية الصهيونية القائلة : بأن اليهــود هم (شعــب الله المختار) من دون شعوب العالمين .

ولا يخفى أن هــذه الفلسفة فى التربيــة قائمة على احتقار الأجنــاس الأخــرى ، واستغلالهــا كلما كان ذلك

مستطاعا ، وهي تؤدي في خاتمـة المطاف الى جعل الظلم هو الدستور الذى تقوم عليه حياة البشر .

وربما وجدنا بعض البلاد الاوربيـة تربى أبناءها على أساس من القيم السامية ، كالنظام ، والنظافة ، والصدق والمجاملة ، والاستقامة ، وحب الآخرين ، ومن أشهر البلدان فى هذا المنهج فرنسـا وانجلترا ، وكثيرا ما نسمـع عن مستوى التربية فى هـذين البلدين ، وتضرب لنا الأمثال عن استواء الشخصية الفرنسية ، أو الانجليزية ، وعظمـة ما نالت من قيم حضارية . ومع ذلك فمن المؤكد أن وجود هذه القيم مرتبط كذلك بالأرض ، أى ما وجد الفرد فى وطنه الأم ، فالانجليزى شخص متحضر جـدا حين يـكون فى انجلترا ، والفـرنسى متحضر وهو يعيش فى فرنسـا . فأما حين يخرجان الى ميدان الاحتـكاك بالشعوب الأخرى فان هذه القيم الحضارية تتحول فورا الى قيم استعمارية ، تتمثل فى استغلال الشعـوب المغلوبة ، واستعمار أرضها ، واغتصاب حقها فى الحرية وفى الحياة .

ففضائل هذه المناهج التربوبة هى عند التحليل فضائل أنانية ، جذبية تمتـد الى الداخل ، ولا تشع خارج مجالها ، المكانى أو البشرى . ذلك هو طـابع الحضـارة الأوربيـة بصفة عامة .

وحتى منهـاج التربية الشيوعية ، الذى يحـاول أن يبنى فردا عالميا ، ينطوى على قيم عامة تحاول سوق الخير

للبشرية ، ومع ذلك تدلنا بعض المواقف على انه لم ينتصر على عوامل المكان ، وتأثيراته الجغرافية ، الطبيعية او البشرية ، وما أحداث النزاع بين الصين وروسيا الا اثر لهذه العنصرية الخفية في فلسفة التربية الشيوعية ، فكلتا الدولتين تحاول فرض سيطرتها على قطعة هائلة من الأرض على حدودها مع الأخرى ، ولو كان الاحتكام اخيرا الى المبدأ لما فرقت قطعة من الأرض بين أمتين عظيمتين تؤمنان به ، لأن الأرض كلها ملك للمؤمنين بالمبدأ .

لا تقل : أنه خلاف طارىء ، فان الدلائل كلها تشير الى خلاف ذلك .

ولا تقل : أن هناك اختلافا في تفسير النظرية الشيوعية بين الدولتين ، فكل ذلك لاحق على أحداث الصراع حول أرض منغوليا ، وهو يعكس خوف كلتيهما من سيطرة الأخرى على مقدراتها ، فالصين تتحصن بتفسيرها للنظرية الماركسية من أن تفرض روسيا سلطانها عليها ، وروسيا تمضي في تطوير تطبيقها للشيوعية الى حد التخلي عن بعض مبادىء أساسية فيها ، وهي تحاول بكل قواها أن تؤمن قدرتها على مواجهة تزايد قوة الصين على حدودها . حتى وجدنا أن ألوانا من التقارب تتحقق بين روسيا قلعة الشيوعية ، وأمريكا طاغوت الراسمالية ، على حين لا يؤمل أشد الناس تفاؤلا أن يحدث نظير هذا التقارب بين روسيا والصين .

هذا كله يدلنا على ان منـــاهج التربية التى تقوم عليها هذه النظم المختلفة ، من رأسمالية وشـــيوعية ، انما تهدف الى هدف واحد هو تكون (المواطن الصالح) بمفهومهما ، وفى حدود امكانياتهما .

اما هــدف الاســلام من التربيـــة فانه مختلف تمام الاختلاف عن هذه المناهج ، جميعا ، فالاسلام لا يعمل على بناء (المواطن الصالح) ، ولكنه يريد (الانسان الصالح) ، وفرق هائل بين التربيتين والهـــدفين ، تربية تتوجه الى (المواطن) فى رقعة محدودة ، بمفاهيم محدودة ، لهـدف محدود . وتربية تتوجه الى (الانســـان) فى كل زمـــان ومكان ، لهدف يتجــاوز حدود الزمان والمــكان ، ويقفز بالانســـان الى الآخرة فى رحلة على طائرة التأمل والعقيـــدة الراسخة : « يأيها الانسان ماغـــرك بربك الـــكريم ، الذى خلقك فسواك فعدلك ، فى أى صورة ماشاء ركبك » (١).

« يأيها الانســان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه »(٢).

« والعصر ، ان الانســـان لفى خسر ، الا الذين آمنوا وعملـــوا الصــــــالحات ، وتواصــــوا بالحـــق ، وتواصــــوا بالصبر » (٣) .

---

(١) سورة ٨٢ ، آية ٦ - ٨
(٢) سورة ٨٤ ، آية ٦
(٣) سورة ١٠٣ ، آية ١ - ٣

« ان الانسان خلق هلوعا ، اذا مسه الشر جزوعا ، واذا مسه الخير منوعا ، الا المصلين » (١) .

ولقد ذكر لفظ (الانسان) فى القرآن خمسا وستين مرة ، كلها لأغراض تربوية مقترنة بدعوته الى الخير ، ونهيه عن الشر ، وهذا يأتى فى صورة التذكير بخلقه ، أو تسجيل ما فطر عليه ، أو التنديد بانحرافه وطغيانه وكفره ، أو تصوير نعم الله عليه ، وتربيته اياه .

وحسبنا أن نتأمل أول سورة نزلت من القرآن لنرى فيها هذا الاتجاه صريحا قاطعا الى الانسان بخيره وشره : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم ، كلا ان الانسان ليطغى ، أن رآه استغنى ، ان الى ربك الرجعى » (٢) .

لقد ذكر (الانسان) فى هذه الآيات ثلاث مرات وذكر مربيه وهو (ربك) ثلاث مرات أيضا ، وهو نسق يفصح تمام الإفصاح عن منهج الاسلام فى التربية ، وأن هدفه هو تكوين (الانسان) الصالح ، على مستوى الانسانية ، التى لا تتقيد بعوامل الزمان أو المكان ، وانما تتحكم فيها القيم والمبادىء التى وضعها الخالق وارتضاها للمخلوقات.

---

(١) سورة ٧٠ ، آية ١٩ — ٢٢

(٢) سورة ٩٦ ، آية ١ — ٨

ومن هنا كانت دعوة المساواة التى تتجلى فى نداء القرآن (للناس) ، وكلمة (الناس) هى فى الواقع اسم جمع (للانسان) ، فما يتوجه الى الناس هو توجيه فى الوقت نفسه للانسان .

ودعوة القرآن للناس هى دون تفرقة بين عربى أو أعجمى : « يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم » (١) .

ومتى انتفت التفرقة ماتت العصبية للقوم ، والعنصرية بالدم ، وانتفى مع العصبية والعنصرية كل اتجاه الى الظلم ، أو التمييز أو الاستغلال . وتأكدت جميع القيم التربوية الفاضلة التى دعانا اليها ربنا ، رب العباد .

هذا اتجاه أصيل فى الاسلام ، لم يسبق فى أى دين أو فلسفة ، ولم يلحق كذلك فى أى فكر أو فلسفة ، وهو آية على أن شارعه ليس من جنس البشر ، فان الفكر البشرى لم يسفر الا عن نظم تليق بطبيعته الطينية ، وحدوده الأرضية ، أما نظام الاسلام وهدفه من التربية ، فهو من صنع الشارع الحكيم : « صنع الله الذى أتقن كل شىء » .

---

(١) سورة ٤٩ ، آية ١٣

ليس هذا الكلام فسحا نظريا ، يستحلى بلاغة القول ، وترديد الشعارات ، ولكنه خلاصة تجربة تمت أحداثها على يد النبى صلى الله عليه وسلم ، الذى استقبل أمر الرسالة وليس معه أحد ، وبقى بمكة ثلاثة عشر عاما ، يربى أصحابه على تفهم القيم الجديدة ، وهضمها ، وتمثلها حتى تصبح سلوكا رشيدا .

لم يخط اية خطوة نحو مقاومة الظلم النازل بهم خلال هذه الأعوام الثلاثة عشر ، لأنه كان يربيهم أولا ، ويريد أن يحقق هدفين من وراء هذه التربية :

الاول : تصفية بقايا الجاهلية من أنفس المؤمنين به .

والثانى : احلال القيم الجديدة محل الرواسب المزالة .

فلما اطمأن الى أن القلة التى معه قد استوعبت التجربة ، وحفظت التعاليم المنزلة — تغير الموقف الى مقاومة للبغى ، وانتصار على كل القوى التى كانت قابعة فى انحاء الجزيرة العربية . وذلك لأن التربية قد نجحت فى تغيير ما فى نفس الفرد ، فسهل على هذا الفرد أن يغير واقع المجتمع الدولى آنذاك . وخرج الانسان المسلم من المعركة ظافرا على دولتى الفرس والروم ، اذ كان قد انتصر من قبل على رواسب الماضى فى نفسه ، وكل ذلك فى زمن قياسى .

ولعل كثير من دعاة الجديد ، أى جديد ، سيقولون : وما لنا الآن ولهذه التعاليم القديمة الكلاسيكية !!

وعيب شباب هذا العصر انهم يعتبرون كل قديم معيبا ، وكل جديد فرصة ومغنما ، وليس هذا بصواب ، مهما شجعهم على تصوره كتاب اغرموا بالهدم ، واستحبوا التبعية على الاستقلال !

أن الحق قديم ، ولا يمكن للحياة أن تقوم بغير حق ، وان الخير قديم ، ولا سعادة للانسان بقير خير ، وان الجمال قديم ، ولن يكون للحياة طعم بغير الجمال .

واذا كان لكل جيل طريقة فى النظر ، فان هذه الطريقة لن تغير من طبائع الأشياء ، ولن تحيل الحق باطلا ، والباطل حقا .

ومن هنا كان لا بد من ارساء صرح القيم الخيرة التى دعا اليها الاسلام فى المجتمع ، وفى روع الشباب ووعيهم ، ليمكن أن نأمل خيرا فى اى مشروع من أجل المستقبل .

• ومن هنا كان ايماننا بأن الاسلام صالح لكل زمان ومكان ، وبأن أمر البشرية لو انها سارت على طريق الهدى والبحث عن حلول مشكلاتها ، لا بد صائر الى الاذعان لنظام

الاسلام ، لأنه هو النظام الذي اثبت شموله ، ورحابة افقه ، وصدق اتجاهه الى تربية الانسان بروح الانسانية .

هذا من حيث المبدأ أو الهدف العام من التربية .

اما من حيث الخطة التى التزمها الدين لتحقيق هدفه فقد تتضح خطوطها اذا ما سلكنا مسلكا تحليليا .

فالانسان منطو على جسم وروح وعقل .

ولا بد لأى منهج يستهدف تربية (الانسان) أن يتجه الى تربية هذا الكل ، دون اهمال لجانب من جوانبه .

ولقد شهدنا بأعيننا مناهج فى التربية تركز اهتمامها على تربية الجسم وتهمل اهمالا شائنا تربية الروح ، وتغذية العقل . وأسفرت جهود هذه المناهج فى أعظم حالاتها عن جماعات من (الثيران البشرية) تتباهى باللحم والشحم ، وتتحرك كقطع الحجارة ، تصيب من وقعت عليه ، ولا تحس بشيء مما يدور حولها .

بل لقد تحولت بعض الوان الرياضة ، التى يفترض فيها الروح الجماعية الى رياضة تنمى الأنانية الفردية ، ومن الأمثلة الصارخة على ذلك بعض الرياضيين فى بلادنا من لاعبى كرة القدم . وما ذلك الا لأن التربية فى هذا المجال تقتصر على نفخ الأجسام ، وتضخيم العضلات ، وتربية المجانص والترابيس لا اكثر .

فلو تصورنا أن أمة قامت على الاعتناء بأجسام أبنائها ، دون اهتمام بعقولهم فلن يكون مآل هذه الأمة غير الفناء ماديا وأخلاقيا .

ولقد شهدنا بأعيننا مناهج فى التربية تركز إهتمامها على جانب الروح ، وتحاول أن تدعو أتباعها الى قتل الجسد ، وسحق شهواته ، واحتقار أهوائه . وعاشت البشرية ردحا من الزمان تحت ايحاء هذه المناهج الدينية ، فماذا كانت النتيجة ؟

كانت النتيجة جموعا كبيرة من النساك والرهابنة ، أدت كثرتها الى شيوع الكساد والخمول فى جوانب الحياة ، وأدى ذلك بدوره الى الثورة على الرهبانية ، والانتقاض على أصحابها ، وبخاصة حين ثبت أن الاستغلال قد تسلل الى دعاتها ، فكانوا كما قال الحديث القدسى : « يلبسون للناس مسوك الضأن ، وقلوبهم أمر من العلقم » فتاجروا فى قيم الآخرة ، وفى حقائقها ، وباعوا للناس صكوك الغفران ، ضامنين لهم دخول الجنة ، وامتلاك أجزاء فى بساتينها ، وهكذا انحط أصحاب الروح الى درك المادية ، فأدى انحطاطهم الى ماتحتمله أيضا مناهج التربية التى تهتم بالجسد .

وليس من الصعب تخيل ما تؤدى اليه مناهج فى التربية ، ترجح جانب العقل وحده ، وتهمل ما سواه من مكونات الانسان . فهذه هى الحضارة الغربية الحديثة

اهملت الأخلاق اهمالا شنيعا ، واستبد العقل بأقدارها ومن ورائه كل القيم الهدامة فى المجتمع كالاستغلال وحب السيطرة والكسب من كل طريق ، مشروع وغير مشروع ، فكانت النتيجة مجتمعا رأسماليا بشعا ، وغولا ماديا يلتهم الحضارة وصانعيها ، على حين تحول الدين الى وسيلة يتملق بها الانسان الغربى السماء فى لحظات الضعف والقلق ، ونحن واثقون من أن نيكسون الذى قاد شعبه فى صلاة من أجل سلامة رواد الفضاء هو نفسه نيكسون الذى يعمل ليل نهار من أجل الحاق الظلم بالشعب العربى فى فلسطين .

لا بد اذن من نظرة الى (الانسان) ككل ، نظرة لا تهمل فيه جانبا من جوانبه ، ولا تنضر أحدها على حساب الأخرى .

لا بد من منهج يربى الجسم والروح والعقل معا فى توازن تام . وقد كان الاسلام فى حياة الانسانية هو هذا المنهج الفذ ، نلمس ذلك فى شعائره التى تعامل الجسم والروح والعقل ، وتربيها جميعا بطريقة لا يطغى فيها أحدها على سائر الانسان .

وخذوا مثلا فريضة (الصلاة) .. فلم تكن الصلاة وهى شعيرة العبادة التى تسم المجتمع الاسلامى بسمة الاسلام ، عملا روحيا محضا ، ولا بدنيا محضا ، ولا عقليا

محضا ، ولكنها جمعت الى جانب الحركات التى تفيد الجسد ، حركة قلب نحو خالقه ، يبتغى الصلة وينشد المغفرة ، ثم هى فى الوقت نفسه قائمة على أساس تتردد فيه آيات القرآن بما تتضمنه من تعاليم عقلية وافكار يتغذى بها العقل المؤمن . وهذا كله مجتمع ، بحيث لا تكون الصلاة صلاة كاملة الا به ، وفى الحديث : « ليس للعبد من صلاته الا ما عقل منها » وعلى هذا القياس قوله : « رب صائم ليس له من صيامه الا الجوع والعطش » .

فمنهج الاسلام فى التربية على هذا منهج شامل متكامل متوازن ، يسير فى حدود تتفق مع ما يملكه الانسان من قدرات ، وما زود به من طاقات ، و « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » (١) ، و « فاتقوا الله ما استطعتم » (٢) .

ومن هنا كان التزام المنهج الاسلامى فى التربية ضرورة تفرض نفسها على حركة تطورنا ، وعلى جهود العاملين فى كل مجال ، بعد أن ثبت لكل ذى عينين أن النظم غير الاسلامية ليس لها غناء ، ولا تؤدى الى خير ، ولا هى

---

(١) سورة ٢ ، آية ٢٨٦
(٢) سورة ٦٤ ، آية ١٦

قائمة على حق . وان الاســلام وحده هو النظام التربوى الذى يحقق خير الانسان ، حيثما كان الانسان . وصدق الله العظيم حين قال : « لقد خلقنا الانســان فى أحســن تقويم ، ثم رددناه اسفل سافلين ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ، فما يكذبك بعد بالدين ، اليس الله بأحكم الحاكمين » (١) .

بلى .. ونحن على ذلك من الشاهدين .

---

(١) سورة ٩٥ ، آية ٤ — ٨



مطابع شركة الإعلانات الشرقية

هذا الكتاب

يعالج فى وضوح ويسر قضـــايا العصر الحديث والعلم والتعليم بأسلوب سهل من وجهة النظر الاسلامية مدعمـــة بالأسانيد القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة ..



الثمن ٧ قروش